مدن شمال افريقيا

(دراسة تحليلية)

دكتور / سليمان عبد الستار خاطر *

يدل مصطلح شمال افريقيا (North Africa) فى هذا البحث – على بلاد المغرب بوحداتها السياسية الثلاث (تونس – الجزائر – المملكة المغربية) مضافا اليها الجمهورية العربية الليبية المجاورة لها ، وبذلك يشغل جزءا من العالم العربى والعالم الاسلامى يبلغ ٤٫٧٥ مليون كم٢ ، مما أعطى له طابعا مميزا عما حوله فى تكوينه الحضارى وتقاليده المدنية القديمة عن بقية القارة الافريقية الواقعة جنوب الصحراء (١) . فحياة المدن تقليد قديم متوطن واصيل فى العالم العربى ، والمدنية العربية لها مظهرها وطابعها التقليدى الخاص ومميزات توارثتها على مر الأجيال ، كما ان حضارة العرب فى جوهر كيانها حضارة مدن .

لقد كان مفهوم « المغرب » عند الكتاب العرب شاملا لكل شمال غرب افريقيا بما فيها طرابلس وبرقة ، او قصد به «اراضى اطلس» التى ترتفع بين رمال الصحراء والبحر المتوسط ، فهو كتلة جبلية متفردة دعاها العرب « جزيرة المغرب » لوقوعه بين بحرين احدهما بحر الماء من الشمال والغرب والآخر بحر الرمال من الجنوب والشرق ، وانها لكذلك من حيث المدن جزيرة من الريف تحيط بها المدن من كل الجهات . لكنه اصبح – فى الوقت الحاضر – ينقسم الى عدد من الوحدات السياسية المتميزة ، احتفظت احداهما بالاسم الجغرافى العام فى صيغة « المملكة المغربية » (٢) . ان وجود

---

* استاذ مساعد بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة .

(١) يطلق عليها أفريقيا المتكلمة بالإنجليزية تميزا لها عن مجموعة دول شمال أفريقيا وبعض من غربها والتى يطلق عليها أفريقيا المتكلمة بالفرنسية .

(٢) للمزيد ، انظر : – الصياد والشرقاوى ، (١٩٥٨) ، ص ص ٥ – ٦ . – رزقانه ، (١٩٦٣) ، ص ص ٣ – ٤ .

— Clarke, J.I., in : Prothero, R.M., (Ed.), (1973), p.p. 21.23.

— Fairgrieve, J., Geog. and world power, London, 1941 p. 70.

عقدة السلاسل الجبلية والبعد عن تأثير نهر النيل والتدرج المناخى من البحر المتوسط شمالا الى قلب الصحراء جنوبا ، وتنوع وسائل الحياة التقليدية الريفية والمدنية ، وايضا البصمات الواضحة التى تركها الاستعمار الاوربى بعامة والفرنسى بخاصة الذى ركز اهتمامه فى نطاق البحر المتوسط المناخى ممثلا فى السهل الساحلى والواجهة البحرية مما كان له اثره البالغ فى توزيع المدن واحجامها ، جعلها تمثل فى مجموعها وفى كل مظاهرها وحدة طبيعية واقتصادية لها شخصيتها وكيانها الجغرافى يميزها عن جهات افريقيا الاخرى المجاورة لها .

وقد دخلت مجموعة دول شمال افريقيا ضمن عدد من التسميات التى اطلقت على الاجزاء الشمالية من القارة الافريقية . اذ اختلفت الآراء فى تحديد مضمون شمال افريقيا ؛ فبينما عرفه وحدده « فشر وكلارك (Fisher, W.B. & Clarke, J.I.) بانه « كل الدول الافريقية المطلة على البحر المتوسط » وبذلك اشتمل على خمس وحدات سياسية(١)، عاد « كلارك » وحده ليطلق مصطلح « شمال غرب افريقيا » (N — W. Africa) على الوحدات السياسية الافريقية الاربع المطلة على البحر المتوسط والواقعة غربى جمهورية مصر العربية (٢) ، فى حين اعتبر « جاريت » (Jarrett, H.R.) شمال غرب افريقيا دالا على اقطار المغرب العربى الثلاثة بالاضافة الى « افنى » وادخل « ليبيا » ضمن قسم آخر من تقسيماته للقارة اطلق عليه الصحراء الكبرى (٣) . وقد حددت بعض المطبوعات الاحصائية للامم المتحدة « شمال افريقيا » شاملا لسبع وحدات سياسية (٤) ؛ لكن حدده « بلاك » (Blake, G.H.) بدول المغرب العربى الثلاث وليبيا المجاورة له (٥) . بهذا التحديد يتفق كل من « بلاك » و « كلارك » عندما قصد بها الاخير « شمال غرب افريقيا » مع ما تعنيه المساحة المدروسة من افريقيا هنا تحت مصطلح «شمال افريقيا» .

---

(١) Fisher, W.B. and clarke, J.I., (Eds.), (1972), p. 15.
(مصر – ليبيا – تونس – الجزائر – المملكة المغربية) .

(٢) Clarke, J., op. cit.

(٣) Jarrett, H.R., (1970), P. 109 & P. 237.

(٤) U.N., Statistical yearbook, 1972, p.9.
(مصر – السودان – ليبيا – تونس – الجزائر – المملكة المغربية – الصحراء الأسبانية وافنى)

(٥) Blake, Gerald H., (1971), P. 190.

وتكاد تسجل القارة الافريقية اعلى معدل لزيادة سكان المدن فى العالم اذ بلغ ٤ر٥٪ سنويا ليعادل ضعف المعدل العالمى (٢ر٣٪ ، كما يرجع اختلاف هذا المعدل من دولة الى اخرى لاسباب عديدة (١) . وقد نجم عن ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية للسكان والتى لا تقل عن ٣٪ فى اى من اقطار شمال افريقيا مقارنة بـ ٢٪ للقارة كلها ، فضلا عن الهجرة الوافدة المتزايدة من الريف الى المدن (Rurban Migration) وخاصة فى السنوات التى اعقبت الاستقلال مباشرة ، ان بلغ ارتفاع معدل نمو سكان المدن فى شمال افريقيا فى الوقت الحاضر الى ٥٪ سنويا (٢) .

اما نسبة المدنية (Degree of Urbanization) فهى تعد فى الوقت الحاضر احد المعايير التى يقاس بها تقدم الدول وارتقائها فى السلم الحضارى ، ولذا كانت نسبة المدنية المنخفضة سمة من سمات الدول النامية والعالم الثالث . وبالرغم من زيادتها فى دولة او قلتها فى دوله اخرى الا انها بلغت ٣٥٪ فى المتوسط فى شمال افريقيا ، فى حين ان النسبة وصلت فى بعض اقطاره ـ تونس على سبيل المثال ـ الى اكثر من ٤٠٪ . فنسبة التمدين تكاد تتناسب تناسبا عكسيا مع حجم الدولة فى العالم العربى بصورة عامة ، فكلما صغر حجم الدولة كانت نسبة سكان المدن اعلى ، والعكس بالعكس . والملاحظ انها ترتفع هنا كثيرا عن الاقطار المجاورة فى وسط وغرب افريقيا ودول جنوب آسيا ، ويرجع ذلك الى سرعة نمو المدن الواضح فى السنوات الاخيرة ، كما نتج عن اهتمام الاستعمار الاوربى بالمدن والنشاط الاقتصادى المعاصر انماط مدنية جديدة وتغيرت وظائف كثير من المدن القديمة .

ان حوالى ثلث مجموع سكان شمال افريقيا فى المتوسط ـ فى الوقت الحاضر ـ يقطنون المدن التى تتركز توزيعا وعددا وحجما فى مساحات الكثافة المرتفعة التى تزيد على ٤٠ نسمة / كم٢ (شكل ٣) والتى تنحصر فى السهول الساحلية الواقعة فى النطاق الشمالى من البلاد شمالى حد الصحراء (شكل ٤) . وتختلف هذه الكثافة تماما عن ارقام الكثافة العامة التى بلغت ١٨ نسمة /كم٢ لشمال افريقيا مقابل ٢٧ للقارة الافريقية . او

---

(١) Ominde, S.H., and 6jiogu, C.N., (1972), P. 98.

(٢) Demographic yearbook 1971, Table I, P. 111.
(Blake, op. cit, p. 191. — Ominde, op. cit, P. 97.

— جدول (١) ، عمود ٥ . . .

عن ارقام كل دولة منه على حدة حيث وصلت ١ نسمة/كم٢ فى ليبيا على سبيل المثال (١) .

ومن ثم ، يمكن القول انه نتيجة ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية للسكان والهجرة المتزايدة من الريف الى المدن ونسبة المدنية الحالية وارتفاع معدل نمو سكان المدن (٥٪ سنويا) ومع استمرار هذا المعدل . لن يمضى وقت طويل حتى يصبح نصف سكان شمال افريقيا او اكثر من ذلك من قاطنى المدن فى نهاية القرن الحالى .

وفيما يلى محاولة لبيان طبيعة واهمية المدن فى هذا القطاع الشمالى من القارة الافريقية من خلال الدراسات التالية :

(١) « المدن بين القرن الماضى والقرن الحالى »

لقد استمرت حياة المدن فترة طويلة من الزمن فى شمال افريقيا عنها فى اى منطقة اخرى من القارة الافريقية باستثناء مدن وادى النيل . حيث شغلت بعض المدن مواضعها لاكثر من ٢٥ قرنا من الزمان (٢) . ولذا كان لابد من الرجوع الى البعد التاريخى للمدنية فى شمال افريقيا .

ازدهرت فى العصور « الكلاسيكية » الولايات والمدن الفينيقية على طول الساحل الشمالى المطل على البحر المتوسط ، تبعتها المدن اليونانية ثم الرومانية . وقد حلت معظم المدن المطلة عليه فى الوقت الحاضر محل او تاخمت مواضع المدن القرطاجية (Carthaginian) او الرومانية القديمة التى مازالت تشاهد آثارها حتى الآن ، ومن بينها ـ على سبيل المثال ـ : قورين (Cyrene) ـ ليبتس (Leptis) ـ ماجنا (Magna) ـ اسبراطة (Sabratha) ـ قرطاج (Carthago) . كما كانت الحلات العمرانية الرومانية كثيفة فى ولايتى « افريقيا » و « نوميديا » فى نهاية القرن الثالث الميلادى حيث كان بهما عدد كبير من المدن الرومانية (شكل ١) (٣) . وتعد مدينتا « بنغازى » و « طرابلس » من بين العواصم العربية القديمة ، كما ان لهما اصولا فينيقية وقرطاجية ، وبالمثل مدينة تونس الفينيقية النشأة والتى تاكدت جذورها مرة اخرى فى العصر العربى .

---

(١) جدول(١) عمود ٣ .... و
Demographic Yearbook, op. cit.,

(٢) Clarke, J., in : prothero, op. cit, P. 40.

(٣) Fage, J.D., (1958), PP. 6-7 & P. 11.

اما فى العصور الوسطى ، فقد اسس عدد من المدن العربية التى استمرت فى ازدهارها فيما بعد فى الداخل بعيدا عن الساحل ، اثناء العصر الذهبى للحضارة العربية (ق ٨ ــ ١٣ م) وبخاصة فى القرن العاشر الميلادى خلال الفترة الفاطمية ، حيث ترك الطابع العربى سمات بارزة فى مدن كثيرة فى الاجزاء الشرقية والغربية من المغرب العربى، منها : المهدية ــ تونس ــ القيروان ــ قسطنطينه ــ تلمسان ــ فاس ــ مراكش ــ مكناس ــ واخيرا ، « الرباط » التى ترجع نشأتها الى دولة المرابطين فى العصور الوسطى(١) ، ولكنها لم تختر عاصمة سياسية الا على يد الاستعمار الفرنسى بعد الحرب العالمية الاولى . (شكل ٢) . فالمدينة الاسلامية بتقاليدها التى لم تقهر عبر القرون ومظاهرها العديدة تقف شامخة حتى الوقت الحاضر فى «اللاندسكيب المدنى » فى شمال افريقيا (٢) .

ومازالت تشاهد بعد المراكز المدنية الصغيرة التى اسسها البرتغاليون على طول ساحل الاطلنطى فى المملكة المغربية ، الذى افتقر الى المدن الحقيقية ــ تاريخيا ــ واحتفظ بقليل من المراكز الصغيرة ذات الاصالة المدنية ، كما تشاهد فى كثير من الموانى بقايا القلاع التركية والاوربية . وفى اثناء فترة الاستعمار الحديث اعيد احياء عدد كبير من المدن العربية كما انشىء عدد آخر من المدن الجديدة ، لكن كان النمو المدنى فى الموانى ــ على وجه الخصوص ــ اكثر منه فى المدن الداخلية لاستقرار معظم الاوربيين فيها ولمعاصرتها حركة التجارة الاستعمارية التى تضمنت صادرات المواد الخام والغذائية واستيراد الوقود والمواد المصنوعة .

ومن ثم يمكن وضع خط تاريخى مع سنة ١٩٠٠ ميلادية يفصل بين فترتين تعبر كل منها عن صورة مدنية واضحة لها ظاهراتها الخاصة تجعل منها فترة مدنية متميزة فى شمال افريقيا فى حدود الفترة الحديثة من القرن الحالى مقارنا بما كانت عليه فى القرن الماضى .

فقبل مطلع القرن الحالى : كانت المدنية تتسم بعدة ظاهرات من اهمها اثنتان .

---

(١) Hamdan G., (1962), PP. 121 — 134.

(٢) Benet, F., in : Nels Anderson, (Ed.), (1964), PP. 111-126.

الاولى : اننا لا نستطيع ان نقدر القطاع المدنى من جملة السكان منذ بداية القرن الماضى (سنة ١٨٠٠ م) ، ولكن كل الدلائل تشير انه كان ضئيلا ، ولم تتضح بداية الدفع المدنى فى المغرب العربى بعامة الا منذ النصف الثانى من القرن الماضى . ولم تكن هناك حتى ذلك التاريخ (سنة ١٩٠٠ م) ارقام مؤكدة لواقع نسبة المدنيةفى شمال افريقيا، وربما كان عشر السكان يعد تقديرا اقرب الى الحقيقة . وقد افترضت نسبة ٨٪ لكل من « مراكش » سنة ١٩٠٠ م ، تونس سنة ١٨٨٠ م ، و ١٦٪ للجزائر عام ١٨٨٦ م ، بينماكانت حياة المدن فى ليبيا ــ على الارجح ــ اقل وضوحا فى ذلك الوقت (١) . ولكن من المهم ان ندرك ان كل النسب المئوية للمدنية العامة ليست مقياسا حقيقيا ولا دليلا حاسما على درجة المدنية الفعالة .

فبالرغم من توافر البيانات السكانية فى تعدادات الدول الاربع منذ القرن الماضى (٢) ، الا ان محاولة وضع مستويات لدرجة المدنية فى الوقت الحاضر مقارنة بالسالف تواجه بعدد من المشكلات منها : انه ليس هناك تحديد موحد وتعريف عام بالمراكز المدنية مما لا يصح معه اجراء مقارنات مباشرة او غير مباشرة مع الارقام الدولية المنشورة . وقدنجم هذا التناقض الواضح من عدم اتباع التحديد الدولى للمدن ، أو عدم استخدام الاسس العدية الصحيحة ، حيث اتخذت كل دولة قاعدة عدية (Numerical

---

(١) S. Amin, L'économie du Maghreb, 1965-66, Paris, 1966. PP. 21-35 (After : Blake, G., (1971), P. 190).

---

(٢) التعدادات السكانية للدول منذ سنة ١٩٤٥ ، مع الإشارة إلى ما سبق منذ القرن الماضى :

(أ) المملكة المغربية : تعداد سنة ١٩٦٠ : (أجرى تعداد للمملكة سنة ١٩٧٠ بمساعدة خبراء من الأمم المتحدة لم تظهر إلا نتائجه الأولية فقط حتى الوقت الحاضر — كما سبق خلال القرن العشرين تعدادات لكل من النطاق الفرنسى والأسبانى والمنطقة الدولية ، لكن تعداد سنة ١٩٦٠ هوأول تعداد يضم كل سكان البلاد بعد الاستقلال سنة ١٩٥٦ ، لذا فهو يعطى الأساس الصحيح للدراسات السكانية والمدنية هناك فى الوقت الحاضر) .

(ب) الجزائر : تعدادات ١٩٤٨ — ١٩٥٤ — ١٩٦٦ : (هناك تعدادات منذ ١٨٥٦ — ١٩٣٦ كل خمس سنوات) .

(جـ) تونس : تعدادات ١٩٤٦ — ١٩٥٦ — ١٩٦٦ : (هناك تعدادت منذ ١٩٢١ — ١٩٣٦ كل خمس سنوات ، سبقتها تعدادات من ١٨٨٦ — ١٩١٦ كل خمس سنوات أيضاً لكنها كانت خاصة بالفرنسيين فقط دون الوطنيين) .

(د) ليبيا : تعدادات ١٩٥٤ — ١٩٦٤ : (قبلها تعداد ١٩٣٦) .

خاصة بها (١) ، وقد نشأ عن ذلك خروج عن القياس (basis) الصحيح . ومن ناحية اخرى ، نجد أن هذه الارقام تشير الى تعدادات صدرت فى تواريخ مختلفة قد يمتد الفرق بينها الى ست سنوات مما يصعب معه اجراء المقارنات بينها، وكان لهذا اثره ــ بدون شك ــ فى اظهار مستوى المدنية (Level of Urbanization) فى المملكة المغربية منخفض نسبيا عنه فى الدول الثلاث الاخرى ، اذا قورن بينها طبقا للتعدادات السكانية الاخيرة (*) .

وقد افترض ان كل حلة عمرانية تضم ١٠ الف نسمة فاكثر تعد مدينة ، تسهيلا لعمل المقارنات وانشاء الجداول ورسم الخرائط . ولذا دخلت ضمن الحصر التجمعات الريفية (Rural agglomerations) فى اقليم الساحل بشرقى تونس ، لأن الحلات على هذا الاساس أحصيت طبقا للحجم (by size) وليس على اساس الوظيفة (Function) بينما استبعد عدد من المراكز المدنيةالصغيرة التى تؤدى انشطة غير زراعية ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مدن البترول « كحاسى مسعود » بالجزائر « ومرسى البريقه » فى ليبيا .

اوضحت الجداول ــ طبقا للتعدادات السكانية الاخيرة ــ بناء على اتخاذ الرقم ١٠٫٠٠٠ نسمة كحد ادنى لسكان المراكز المدنية ، أن نسبة المدنية مرتفع فى كل من الجزائر (٣٦٫٢ ٪) وليبيا (٣٤٫٨ ٪) عنه فى كل من تونس (٣٠٫٢ ٪) والمملكة المغربية (٢٦٫٩ ٪) ، بينما يتضاءل الفرق بين المملكة المغربية والجزائر الى ٤ ٪ اذا طبقنا المعيار الاحصائى الدولى للمدن (**) . لكن بالرغم من ذلك ، فقد كشفت الارقام عن حقيقةاساسية وهى انه فى الوقت الحاضر يعيش ثلث سكان شمال افريقيا فى مراكز مدنية مقابل عشر السكان عند مطلع القرن الحالى . ولذا نجد ان نسبة المدنية هنا

---

(١) U.N., Demographic yearbook, 1968, & 1969, P.21 & 1971, P. 22 (Definitions of urban populations).

(حددتهم المملكة المغربية بسكان الحلات المدنية دون النظر إلى الأساس الوظيفى للمدن ، بينما حددتهم الجزائر وتونس بسكان المراكز الإدارية الرئيسية الصغيرة العامة communes أما ليبيا فقد فشل تعدادها الأخير سنة ١٩٦٤ فى تحديد المدن بها ثم أصدرت بعد ذلك تباعا كراسات خاصة بالحلات التى تزيد على ٢٠٠٠ نسمة) .

(*) جدول (١) عمود ٦ .....

(**) جدول ١ ، جدول ٢ ....

أقل منها فى بقية دول العالم العربى والشرق الاوسط ، لكنها ـ فى الوقت نفسه ـ مرتفعة عن دول افريقيا المدارية وجنوب آسيا (١) .

والظاهرة الثانية : انه لم تكن مدن شمال افريقيا حتى سنة ١٩٠٠م صغيرة الحجم فقط بل كانت قليلة العدد ايضا عنه فى الوقت الحاضر . وتشير الجداول فى الستينات (**) الى ان هناك ١٩١ مركزا مدنيا يزيد عدد سكانها على ١٠ آلاف نسمة فاكثر ، فى حين كان هناك فى سنة ١٩٠٠ م نصف هذا العدد على الاكثر تراوحت احجام معظمها من ١٥ ـ ٥٠ الف نسمة مع وجود استثناء فى مركز او اثنين مثل مدينة مراكش التى بلغت ٩٠ الف نسمة . ولم تكن هناك فى ذلك الوقت مدن يزيد سكانها على ١٠٠ الف نسمة ، فمازالت مدن الدار البيضاء ـ الجزائر ـ طرابلس متوسطة الحجم يتراوح احجامها بين ٢٠ ـ ٣٠ الف نسمة ، كما ان معظمها يرجع الى اصول قديمة (٢) . ان المرء لا يتفق تماما مع ما ذكره « ديبوا » و «راينال» Desposis, J. & Raynal, R على ان الحلة العمرانية لا تعد مركزا مدنيا الا اذا وجد بها الجامع ، وسوق دائم ، وحمام شعبى عام ، والمتاريس ramparts انه لم يضع هذا كمعيار او شروط اساسية لكن قصد به وضوح فكرة المدينة فى مجموعها لبيان التمييز الواضح والفروق الكبيرة فى الشكل (Form) والوظيفة (Function) بين المدن (Urban) والتجمعات اللامدنية Non-urban agglomerations اذا ما قورنت بما هى عليه فى الوقت الحاضر (٣) .

اما فى القرن العشرين : فهناك عدة ظاهرات مدنية جديرة بالاعتبار وتستحق الملاحظة ـ ظهرت بعد استقلال البلاد على وجه الخصوص اذا قورنت بما كانت عليه قبله ـ اكثر من معرفة وتحديد المستوى الفعلى للمدنية فى شمال افريقيا ، من بينها الظاهرتان التاليتان :

---

(١) Breese, G., (1966), PP. 23-27. and , Clarke, J., (1971), PP. 90 — 138.

(**) جدول ٢ .....

(٢) Hamdan, G., (1962), PP. 121 — 134.

(٣) Despois, J., et Raynal, R., Geographie de L'Afrique du Nord-Quest, Paris, 1967, P. 65. (After : Blake, G., (1971), P. 191).

(١) معدل نمو المدن : (Rate of Urban Growth) : ويقصد به نمو المدن حجما (سكانا) وليس مساحة (اتساعها كمنطقة مبنية) . والذى اتسم بسرعة غير محددة او مضبوطة . فقد ظهر فى ليبيا خلال القرن الحالى اسرع معدل للنمو وخاصة اثناء العقد الاخير (٦٠ ــ ١٩٧٠) كنتيجة اساسية للزيادة غير المتوقعة فى سكان المدن . وقد سجلت المملكة المغربية نفس معدلات النمو بالرغم من الهجرة النازحة الى خارج البلاد منذ سنة ١٩٥٦م ومن مدنها على وجه الخصوص الآلاف من الاوربيين واليهود(١) ورغم اختلاف تقديرات معدل نمو المدن السنوى الا ان الارقام اوضحت ان الاتجاه العام لهذا المعدل فى المملكة فى زيادة مطردة ، اذ بلغ المعدل ٣ر٣٪ فى الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٣٦ ، و ٤٪ من ٣٦ ــ ١٩٥٢ ، و ٨ر٤ من ٥٢ ــ ١٩٦٠ ، وبلغ ١ر٥٪ فى الفترة من ٦٠ ــ ١٩٦٧ .

ومع ان الجزائر ظلت الدولة المرتفعة مدنيا ــ من حيث العدد ــ بين اقطار شمال افريقيا الا ان معدل النمو بها اقل منه فى ليبيا والمملكة المغربية بسبب هجرة ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ الف نسمة من سكان المدن الجزائرية من غير المسلمين نتيجة لارتفاع الهجرة الخارجية واستمرارها منذ عام ١٩٥٤م . فقد كان معدل نمو المدن السنوى فى الجزائر ٦ر١٪ ثم ارتفع الى ٥ر٢٪ بعد سنة ١٩٣٠ م ثم الى ٥ر٤٪ منذ اوائل الستينات . وقد قدر ان ٥٠٪ من يهود الجزائر البالغ عددهم ١٢٠ الف قد غادرها حتى يوليو سنة ١٩٦٢ ، وان اكثر من مليون اوربى نزح منها الى خارج البلاد عقب الاستقلال (٢) . ومع تقاليد تونس القديمة لحياة المدن فقد ظهر بها اقل معدل لسرعة النمو بالرغم من التوسع الواضح لمدينة تونس ، الا ان المعدل الحالى انخفض الى ٢ر٣٪ فى السنة (٣) .

---

(١) حسان عوض ، (١٩٦٤) ، جدول ٥ ص ٣٧ ، جدول ٦ ص ٤٠ (خاصة بأعداد اليهود والأجانب بالمدن فى المملكة المغربية فى السنوات ١٩٥٢ ١٩٦٠) .

(٢) للمزيد عن أرقام هجرات اليهود من دول شمال أفريقيا إلى اسرائيل وغيرها فى السنوات المختلفة بالتفصيل انظر :

ــ خيرية قاسمية ، على ابراهيم عبده ، (١٩٧١)

Landshut, S., (1950), P. IX & P.I.

Chouraqui, A., (1958), PP. 287-89. C.B.S.I., (S.A.I.), Table 208.

Davis, K., (1969), P. 141.

(٣)

وعلى العموم فرغم اختلاف معدلات النمو من قطر الى آخر ومن فترة الى اخرى فى القطر الواحد الا ان معدل نمو المدن السنوى العام لشمال افريقيا بلغ ٣ر٤٪ فى الفترة من ٥٠ ــ ١٩٧٠م(*) .

(ب) معدل السكان المسلمين فى المدن :
(Rate of Urbanization of Moslem) (population

ان معدل السكان المسلمين فى مدن شمال افريقيا لظاهرة تستحق الدراسة وبخاصة فى فترة ما بعد الاستقلال .

ففى النصف الاول من القرن الماضى (١٩) كانت هناك نسبة مئوية مرتفعة من سكان المدن من غير المسلمين . فعدد كبير من المدن الكبرى موانىء تتبادل التجارة مع عالم البحر المتوسط وتضم جاليات اجنبية اسبانية وايطالية ومالطية ، بالاضافة الى ان كلا منها يضم اعدادا كبيرة من الجالية اليهودية التى كانت تشكل فى بعض الاحيان نسبة خطيرة من سكان المدن ، فعلى سبيل المثال كان يؤلف اليهود ثلث سكان مدينة طرابلس (**) .لكن شهد النصف الثانى من القرن تدفق اعداد متزايدة من الاوربيين ، فقد تسلم الفرنسيون زمام الامور بالجزائر فى سنة ١٨٥٧ ، وفى تونس سنة ١٨٨١ ، ولم تات نهاية القرن حتى اصبح اكثر من نصف سكان معظم المدن الكبرى فى هاتين الدولتين من اليهود والاوربيين .

اما فى القرن الحالى فقد اقتسمت فرنسا واسبانيا المملكة المغربية فى عام ١٩١٢ ، واخضعت ايطاليا ليبيا فى العشرينات ، وزاد النمو المدنى فى هاتين الدولتين مع بداية الحكم الاستعمارى الاوربى . ومع قرب حرب التحرير بالجزائر ١٩٥٩ كان ٨٠٪ من سكان مدنها من الاوربيين واليهود . وقد رحل ٦٠٠ الف اوربى من المدن الجزائرية فيما بين سنتى ١٩٦٢ (سنة الاستقلال) و ١٩٦٤ ، بينما وفد اليها ٨٠٠ الف جزائرى اثناء نفس الفترة

(*) جدول ٣ .....

(**) خيرية قاسميه ، وعلى ابراهيم عبده (١٩٧١) ، ص ٢١٦ . (كان ليهود طرابلس حيهم الخاص المسمى « حارة » (أو حوره) وهذا الحى يتألف من شوارع ضيقة ملتوية من بقايا العصور الوسطى . كما تشاهد نفس الحارة بنفس النمط والشكل فى بقية العواصم والمدن الكبرى بأقطار شمال أفريقيا وغيرها من العالم العربى وهى « حارة اليهود أو حى اليهود »

القصيرة من الريف الجزائرى ومن مراكز التجمع (regroupment centres) ومعسكرات اللاجئين ((refugee camps)) التى كانت فى تونس والمملكة المغربية ، حتى اصبحت النسبة اقل من ٢ ٪ من سكان المدن الجزائرية من غير المسلمين فى الوقت الحاضر (١) . وحتى سنة ١٩٥٢ كان فى المملكة المغربية ١٦ ٪ فقط من سكان مدنها من المسلمين ، وتتألف معظم النسبة الباقية (٨٤ ٪) من الفرنسيين والاسبان واليهود . ولقد كان رجيل اللامسلمين (اوربيين + يهود) من المملكة تدريجيا منذ استقلالها سنة ١٩٥٦ ، وما ان حل عام ١٩٦٤ حتى كان اقل من ٢ ٪ من سكان مدنها من غير المسلمين . وعندما حصلت تونس على استقلالها سنة ١٩٥٦ كان ١١ ٪ فقط من سكان مدنها التى يزيد عدد سكانها على ٢٠ الف نسمة من المسلمين وتتركب النسبة الباقية (٨٩ ٪) من الفرنسيين والايطاليين واليهود ، لكن مع حلول عام ١٩٦٤ الذى تبع نزوح ٢٠٠ الف اوربى من البلاد ارتفعت نسبة المسلمين فى المدن التونسية الى ٩٢ ٪ (٢) . وحتى سنة ١٩٦٤ لم تكتمل بعد اسلامية المدن (Moslemisation) فى ليبيا ، فقد رحل منها اكثر من ١٠٠ الف ايطالى ويهودى ، كما رحلت ايضا اعداد كبيرة قبل الاستقلال سنة ١٩٥١ ، لكن مازال غير المسلمين يؤلف حوالى عشر سكان المدن الليبية . وقد انخفضت هذه النسبة كثيرا فى الوقت الحاضر فى ظل المناخ السياسى الجديد الذى اعقب ثورة عام ١٩٦٩ .

والملاحظ ــ بصفة عامة ــ ان نسبة اللامسلمين فى مدن شمال افريقيا بلغت ذروتها فى منتصف القرن الحالى لكنها انخفضت الى ادناها فى الوقت الحاضر بعد نزوح اعداد كبيرة من الاجانب واليهود الى خارج البلاد فى السنوات القليلة التى اعقبت استقلال اقطاره الاربعة الذى تم بعد منتصف القرن ، والتى لا تقارن بالسنوات الطويلة التى مكثوها فى البلاد .

(٢) « اسباب نمو المدن »

معظم الآراء والدراسات التى تدور حول اسباب النمو السريع للمدن فى شمال افريقيا تقلل كثيرا من قيمة ارتفاع معدل الزيادة الطبيعية وتجعله اقل شأنا من عنصر الهجرة ، مع ان العامل الاول اساسى والعامل الثانى ثانوى او اضافى فى عملية النمو .

---

(١) Blake, G., (1971), P. 193.

(٢) Republique Tunisienne, Ministere De L'Economie Nationale, «Les Villes en Tunisie», 1971.

فلقد بلغ المعدل السنوى للزيادة الطبيعية لسكان شمال افريقيا فى السنوات الأولى من هذا القرن حوالى ٨ر١٪ ، ارتفع الى ٧ر٢٪ فى منتصف القرن ، بينما وصل الى ٣ر٣٪ فى الوقت الحاضر (حتى سنة ١٩٧١) ، وهو معدل مرتفع بالنسبة لكثير من اقطار القارة الافريقية التى بلغ معدلها ـ ر١٪ (١٩٠٠ ـ ١٩٥٠) (١) . وكانت اعلى المعدلات فى الخمسينات بين اقطار شمال افريقيا هى ٩ر٢٪ و ٨ر٢٪ للمملكة المغربية وليبيا على التوالى ، بينما كان المعدل ٥ر٢٪ فى الجزائر ، واقلها ٦ر١٪ فى تونس لأن نموها اقل من الأقطار الأخرى . اما فى الوقت الحاضر فقد بلغ معدل الزيادة الطبيعية (٦٣ ـ ١٩٧١) لشمال افريقيا ٣ر٣٪ ، وهو رقم لم تنقص عنه تونس وليبيا وانما زادت عنه قليلا المملكة المغربية والجزائر(٢) . (جدول ١ عمود ٥) . ومع ذلك فهناك تقديرات مدعمة بادلة كثيرة بأن الزيادة الطبيعية اعلى بكثير جدا فى المدن عن هذا المعدل ، وربما كان ٤٪ معدلا شائعا وعاما ، ويرجعون أسباب ذلك الى العناية الطبية وتحسين ظروف الاسكان وغيرها. فاذا قورنت هذه النسبة بالمعدلات السالفة سنجد ان لهذه الارقام اهمية كبيرة فى سرعة نمو مدن شمال افريقيا .

وتجدر الاشارة هنا الى حدوث هجرة ضخمة الى المدن فى الجزائر اثناء حرب الاستقلال فى الفترة التى بين التعدادين الاخيرين (١٩٥٤ـ١٩٦٦)، وايضا عقب الاستقلال مباشرة ، حتى ان اكثر من نصف المدن الجزائرية نمت بسرعة كبيرة بسبب عامل الهجرة الوافدة اليها عنه من عامل الزيادة الطبيعية للسكان . فقد حدث نمو ملحوظ فى المدن المتوسطة الحجم (medium — sized Towns) التى فقدت اعدادا من الفرنسيين والاجانب اللامسلمين اقل مما اكتسبته ـ فى نفس الوقت ـ من اعداد المواطنين الجزائريين الوافدين اليها . وقد نمت مدينتا الجزائر وقسطنطينة بمعدل ٢ر٨٪ و ٢ر٩٪ سنويا على التوالى بالرغم من رحيل اعداد كبيرة من الاوربيين منهما ، ولكن انخفض معدل النمو ومقدار حجم الهجرة الى المدن الجزائرية فيما بعد .

بينما لا نجد فى المملكة المغربية اكثر من اثنتى عشرة مدينة يرجع معدل

---

(١) Clarke, J., (1971), P. 21.

(٢) Demographic yearbook 1971, Table 3, PP. 125 — 126.
Statistical yearbook 1972, Table 21, PP. 89 — 90.
Clarke, J.I., (1969), Table II & III.

نموها من غير شـــك الى الهجرة عنـه الى الزيادة الطبيعية ، حيث نمت « الدار البيضاء » ، بمعدل ٢ر٥٪ ســنويا فيما بين ســنتى ١٩٥٢ ــ ١٩٦٠ ، وهو معدل لم تتجاوزه سوى مدينتين من اكبر المدن الاثنتى عشرة فى المملكة (١) . اما فى تونس فنجد ان مدينة تونس فقط هى التى برهنت على حدوث استمرارية الهجرة اليها . بينما يرجع النمو السريع لمدينتى « طرابلس » ، « بنغازى » فى ليبيا اولا وقبل كل شىء لارتفاع معدل الهجرة الداخلية .

اما اسباب الهجرة من الريف الى المدن (Rural — urban Migration) فتعـــــود الـى مجمـــوعة متشـــابكة من العـــوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وهى معقدة الى درجة كبيرة ، كما تختلف من قطر الى آخر وعلى الصعيد المحلى من اقليم الى آخر . وعلى وجه العموم ، فان عوامل الطرد (Push factors) المألوفة هى فى الغالب المسئولة عن الهجرة هذه ، من بينها : نظام ملكية الارض ، تجزئة الملكية وصغرها ، عدم نجاح كثير من المحاصيل والغلات ، وايضا كثافة وضغط السكان المحلى . كما كشـــفت عمليات الهجرة على المستوى العام لشـــمال افريقيا تشـــابهات معينة فى الاقطار الاربعة مما يتيح اجراء مقارنات هامة مع الاقطار النامية الاخرى. ويمكن الاشارة الى ثلاثة مظاهر واضحة تحدث فى عملية الهجرة من الريف الى المدن فى شمال افريقيا .

(١) ان وجهة الهجرة فى المقام الاول هى المدن الكبرى (Large city) وهنـــاك احصـــائيات دقيقة عن الهجرة من الريف بالنســـبة لبعض البلدان العربية ، ففى المملكة المغربية ــ مثلا ــ بلغت الهجرة من الريف بين عامى ٣٦ ــ ١٩٥٢ ، ٨٠٠ الف نســمة ، منهم ٣٠٠ الف نزحوا الى مراكز عمرانية كبيرة مثل « الدار البيضاء » و « الرباط » و « القنيطرة » (٢) . لـكن حدث ايضا ان اجتذب عدد كبير من المدن الصغرى (Small Towns) المهاجرين الريفيين من ظهيرها المباشر . وفى الحقيقة انه كلما صـــغرت المدينة بدا تأثيرها الاقليمى أقوى (٣) ومن بين هـــذه المدن الصـــغرى مدن تساند نشاط النمو الاقتصادى كالموانى ومراكز التعدين واخرى يبدو بها

---

(١) Awad, H., (1964), PP. 49 — 64.

(٢) توفل كسراوى ، (١٩٧١) ، ص ١٤١.

(٣) Blake, G., (1971), P. 194. («Indeed, the smaller the town the stronger its regional influence seems to be»).

الحافز الاقتصادى ضعيف الى حد ما كمدن الأسواق الصغرى والمراكز الاقليمية . كما أن هناك بعض الأدلة والشواهد فى المملكة المغربية ـ على الأقل ـ على أن مثل هذه المدن استخدمت فى عملية الهجرة كخطوة مرحلية الى المدن الكبرى .

وتجدر الاشارة هنا الى أن البترول قد أحدث هجرة داخلية واسعة المدى عميقة الاثر من الواحات والاستبس والصحراء الى المدن خاصة فى ليبيا والجزائر ، حيث تحولوا الى مجتمع مدنى متضخم . فقد قدر أن ٤٠٪ من الزراع فى ليبيا قد هجروا الزراعة الى المدن فى السنوات القليلة الاخيرة (١) . فالهجرة الى المدن عارمة وتعنى فى الحقيقة الهجرة الى المدن الكبرى ليس فقط على حساب الريف والواحات ولكن أيضا على حساب المدن الصغرى والمتوسطة .

(ب) ان معظم حركات الهجرة هى للاستقرار الدائم وتشتمل على افراد الأسرة كلها فى مرحلة تكوينها المبكر . ونتيجة لهذا ، فان نسبة الذكورة ليست مرتفعة بصورة واضحة فى مدن شمال افريقيا . كما ان هناك نتيجة أبعد من هجرة الأسرة كلها وهى ضعف الصلات والروابط بالمناطق الأم مصدر الهجرة . لكن هناك فى نفس الوقت اصرار وميل شديد الى التجمع القبلى عن طريق تجاور الملكية والسكنى فى المدن ، رغم ان هذه العصبية القبلية تنصهر بمرور الزمن فى بوتقة المدن والمجتمع الحضرى . ويشاهد هذا التجمع فى الأحياء الفقيرة وعشش الصفيح (Bidonvilles) التى اصبحت مع سرعة نمو المدن بصورتها وشكلها ومساحتها المتزايدة تشكل تشويها كبيرا على المدن فى شمال افريقيا ، كما اصبح هذا النمط السكنى واضحا ومتكررا فى كل العواصم ومعظم المدن الكبرى وحولها .

ويبلغ أكبر اتساع لهذه « المدن الصفيح » فى المدن الساحلية الكبيرة التى يسجل فيها سكانها نسبة كبيرة تبلغ احيانا اكثر من ٤٠٪ من مجموع سكان المدينة ، كما هو الحال فى مدينة القنيطرة ـ مثلا ـ نجد ان اكثر من ٩٦٪ من سكان مدن الصفيح بها من أصل بدوى واقل من ٤٪ من أصل مدنى . ومع ذلك لم تسلم منها المدن الداخلية هى الأخرى لكن بنصيب اقل حيث يمكن اعتبارها صورة مكانية لظاهرة اجتماعية جديدة . ويصور جاك بيرك (J.Bercque) حالة سكان مدن الصفيح فيقول بأنهم حضريون دون أن تكون لهم مدينة ينتمون اليها . أما من ناحية المنظر الجغرافى فهذه المدن لا تسيطر على المظهر الحضرى فى المدن التى ابتليت بها ، ففى معظم

---

(١) جمال حمدان ـ الجمهورية العربية الليبية (١٩٧٣) ، ص ١٤٤ .

الاحيان نجدها مستترة بعيدة بعض الشيء عن الطرق الرئيسية (١) .

(جـ) تحدث معظم الهجرة دون تأكيدات مسبقة لوظيفة او لمسكن فى المدينة مقصد الهجرة . فمن بين الحقائق ان ظل بعض المهاجرين اكثر من ثمانية عشر شهرا بدون عمل . والواقع ان اخطر مشكلة اقترنت بالهجرة هى مشكلة التعطل التى يعانى منها اغلبية النازحين حيث ان مجال العمل لم يمتص سوى قلة قليلة منهم على حين تتضخم مشكلة المتعطلين ، حيث شكلت الهجرة الداخلية ازمة حقيقية يجب على الدول مواجهتها والنظر اليها بعين الاعتبار . ونتيجة لذلك تعانى كثير من المدن من التوسعات المتزايدة ونمو مدن الصفيح والاكواخ القبيحة المنظر التى توجد احيانا فى مواقع رئيسية كمداخل المدن ومخارجها ، والتى تضم نسبة كبيرة من العاطلين وتظهر بها بوضوح عديد من المشكلات الاجتماعية .

وقد قامت الجزائر عقب استقلال البلاد بمحاولة ناجحة باستبدال مواضع مدن الصفيح التى يشغلها عدد كبير من العاطلين بانشاء منازل لائقة للسكنى . لكنا نجد انه بالرغم من برامج اعادة الاسكان (rehousing programmes) فى المملكة المغربية ، أن ما بين ٣/٤ ، ٤/٥ سكان عدد من المدن الكبرى يقطن فى مدن الصفيح . كما توجد نفس الظاهرة ايضا فى ليبيا وتونس لكنها اقتصرت هنا على المدن العواصم تونس وطرابلس وبنغازى .

(٣) « بين النظرية والتطبيق »

١ ـ التدرج الهرمى لاحجام المدن . ٢ ـ تصنيف وظيفى . ٣ ـ توزيع المدن وتباعدها

... (١) « التدرج الهرمى لاحجام المدن » :

(Rank- size Hierarchy)

ان نظام التدرج فى حجم المدن مألوف فى كثير من البلاد الاوربية وتشذ عنه

---

(١) J. Bercque, Medina, Villes Modernes et Bidonvilles, Cahiers de Tunisie 21-22, 1959, P. 40.

عن : حسان عوض ، (١٩٦٤) ص ١٢٧ .

المدن فى بعض اقطار آسيا وافريقيا . ولذا ، كشفت دراسة الترتيب الهرمى لاحجام المدن فى شمال افريقيا . (شكل ٥) عن عدد من الظاهرات المدنية الهامة من بينها حقيقة المدينة الاولى (The primate city) ونوعية احجام المدن .

فالمدينة الاولى خاصية مميزة للدول النامية والصغيرة منها والتى استقلت حديثا على وجه الخصوص ، كما انها تكبر المدينة الثانية كثيرا فى الحجم وتفتقر الى مبرر لكبر حجمها . وهى لا تمثل شذوذا كبيرا فى اقطار شمال افريقيا لكنها واضحة بارزة فى تونس . ودراستها تعكس نتائج الجهود الكبيرة لايجاد مراكز الأسواق التى توفر اقل فى التكاليف وجيد فى الانتقال ، كما تتمتع بمزايا مستوى اقتصاديات المدن (١) . وهناك محاولات للربط بين حجم المدن ومرتبتها عن طريق قاعدة الترتيب والحجم . (Rank-size Rule) الذى توصل اليه وطبقة « مارك جفرسون » . «بيرى» (Jefferson, M. & Berry B.J.L.) فى وضع نظام ترتيبى للمدن طبقا لاحجامها بنسب مئوية أساسه المدينة الاولى (٢) . والقاعدة بطبيعة الحال ان تكون عاصمة الدولة الوطنية هى المدينة الاولى ، لكن تشذ عن القاعدة هنا المملكة المغربية حيث « الرباط » لا تعدو ان تكون المدينة الخامسة فى الترتيب الهرمى لمدن المملكة . وقد وضع (جدول ٥) ليوضح حقيقة المدينة الاولى والمدن الكبرى التالية لها فى اقطار شمال افريقيا .

ومن الواضح ان ابدت مدينة تونس عاصمة الجمهورية السياسية والاقتصادية ميلا متزايدا فى سبق المدن القريبة منها ومنافستها فى الحجم، فقد وصلت الى حجم تضاءل معه نسبة المدينة الثانية او الثالثة اليها . لكن ظهر فى ليبيا ازدواجية (Duality) فى العاصمة اكثر من وضوح المدينة الاولى . ومن ثم ليس هناك فرق كبير فى الحجم بين المدينتين الكبيرتين فى الدولة ، يتبعهما انخفاض كبير فى الحجم الى « درنة » المدينة الكبرى الثالثة ، ثم تهوى بعدها المدن مباشرة الى احجام قزمية فى «المرج» و « سبها » . وجدير بالذكر ان فى المملكة المغربية مدينة اولى كبيرة واحدة وبارزة مليونية وهى « الدار البيضاء » التى لم تعد المدينة الاولى بالنسبة للمملكة فحسب بل الاولى بالنسبة لشمال افريقيا (٣) . ومع انها تكبر

---

(١) Lloyd, R., (1970), P. 21.

(٢) Jefferson, M., (1939), PP. 226-232.
Berry, B.J.L., (1958), PP. 83-91.

(٣) جدول ٤ ، شكل ٦

كثيرا مدينة مراكش الثانية فى الحجم الا انها لا تضم نصيبا كبيرا من سكان المدن فى المملكة ، فبها ٢٢٪ فقط من جملة سكان المدن بالدولة . وتنسحب نفس الظاهرة على الجزائر ، فبالرغم من ان حجم مدينة الجزائر كبير ، الا ان وجود المدينتين الكبيرتين الثانية والثالثة وهما وهران وقسطنطينة على التوالى مجتمعة مع عدد من المدن المتوسطة الحجم يجعلها فى مستوى منخفض نسبيا بالنسبة لدولة نامية .

وعلى العموم ، فرغم عدم تطابق النسب المقترحة للمدنية الاولى (١) الا انها واضحة فى المملكة المغربية وتونس وليس بنفس الدرجة فى الجزائر وليبيا . ويتضح هذا من احجام العواصم والمدن الكبرى فى شمال افريقيا باعتبار دورها فى دولتها من حيث الحجم بالنسبة لسكان الدولة أو لسكان المدن الكبرى وايضا من حيث الأهمية والتركيز . فمفهوم فكرة التوزيع الهرمى للمدن حقيقة جامدة ليست سهلة التطبيق وخاصة فى الدول النامية (٢) . ولذا تعكس المدينة الاولى وتدرج الاحجام فى الاقليم بل تلخص فى بلاغة وايجاز كثيرا من الحقائق الجغرافية الدقيقة ، لأن عدم التجانس فى سطح الارض من تضاريس وتربة ونبات وعمران وغيرها يسبب اضطرابا فى التراتب بين التباعد واحجام المدن بل فى تدرجها الهرمى .

ـ اما نوعية احجام المدن : فالظاهرة هنا هى وجود اعداد قليلة من المدن المتوسطة الحجم التى تتراوح بين ٥٠ ـ ١٠٠ الف نسمة مع اعداد كبيرة من المدن الصغيرة الحجم (*) . فليست بعض المدن التى يتراوح حجمها بين ١٠ ـ ٢٠ الف نسمة مدنا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ومع ذلك فهناك ١٥٥ مركزا مدنيا تراوحت احجامها بين ١٠ ـ ٥٠ الف نسمة (**) يسود معظمها الوظائف غير الزراعية (Non — Agricultural Functions) وهنا تنفرد ليبيا وسط شمال افريقيا فى عدد المدن من هذا الحجم وايضا فى اعداد المراكز المدنية التى يزيد عدد سكانها على ١٠ الف نسمة بصفة عامة ، حيث لا يوجد بها سوى عدد ضئيل منها اذا ما قورنت باقطار المغرب العربى الثلاثة (٣) . بينما تشتمل الجزائر على عدد كبير من المدن (١٣

---

(١) Jefferson, M., (1939), P. 227.

(٢) Lloyd, R., (1970), P. 22.

(*) جدول ٢ وجدول ٤ « أ » .

(**) جدول ٢ عمود ٣ ، وجدول ٤ .

(٣) انظر المراجع فى أسفل جدول ٢ وجدول ٤ .

مدينة) التى يتراوح احجامها بين ٥٠ ــ ١٠٠ الف نسمة ، وهو يزيد على مجموع اعدادها فى الدول الاخرى لشمال افريقيا .

لقد نشأت معظم المدن الصغيرة الحجم أثناء الاحتلال الفرنسى لتحقق مجموعة متنوعة من الوظائف ، فارتبطت قلة منها بالتعدين ، حيث نجد « خوريبكة » ــ كمثال بارز ــ فى المملكة المغربية تدين فى وجودها وحجمها الى معدن الفوسفات ، كما ان كثيرا من المدن فى المملكة والجزائر تدين ايضا فى نشأتها واحجامها لمناجمها المعدنية . كما نمت موانى صغيرة لارتباطها بالتعدين او لارتباطها بتصدير البترول مثل : بنى صاف (الجزائر) ، القنيطرة (المملكة المغربية) ، بجاية (الجزائر) والصخيرة (تونس) . فى حين تأسست اعداد قليلة من المدن كمصايف ساحلية (Ceastal resorts) والتى اصبحت هى والمدن الواحية مراكز سياحية (١) .

اما المدن الكبيرة الحجم ، فنجد ان المدن الكبرى المليونية ظاهرة حديثة نسبيا فى العالم العربى ونادرة فى شمال افريقيا ، وتمثلها فى الوقت الحاضر مدينة « الدار البيضاء » فقط ، في حين قاربت مدينة الجزائر من هذا الحجم . كما لم يكن من المدن الكبيرة الحجم التى يزيد عدد سكانها على ١٠٠ الف نسمة بشمال افريقيا حتى نهاية القرن الماضى ، لكن بلغ عددها خمسة حتى سنة ١٩٣٠ (تونس ١ + الجزائر ٢ + المملكة المغربية ٢) (٢) ، زادت الى تسع فى منتصف القرن الحالى (تونس ١ + الجزائر ٤ + المملكة المغربية ٣ + ليبيا ١) (٣) ، ثم بلغت اعدادها ١٣ مدينة فى سنة ١٩٦٠ (تونس ١ + الجزائر ٥ + المملكة المغربية ٦ + ليبيا ١) (٤) وطبقا للتعدادات الاخيرة فى اقطار شمال افريقيا بلغت هذه المدن خمس عشرة مدينة يزيد عدد سكانها على ١٠٠ الف نسمة موزعة ثمان فى المملكة واربع بالجزائر ، واثنتان فى ليبيا وواحدة فى تونس (*) . والملاحظ ان اعداد هذه المدن قد تزايدت فى كل الدول منذ مطلع القرن حتى الوقت الحاضر فيما عدا تونس التى احتفظت بمدينة واحدة من هذا الحجم (مدينة تونس) ، فى حين لم يزد عدد هذه المدن فى ليبيا الا بعد عام ١٩٦٠ .

---

(١) حسان عوض ، (١٩٦٨) ، ص ٨٨ .
(٢) Jefferson, M., (1931).
(٣) عزة النص ، (١٩٥٥) ص ١٦٤
(٤) محسوبة من أرقام Statesman's yearbook 1960 .....

* جدول ٢ عمود ١ .

... (٢) « **تصنيف وظيفى** » : يجب ان نضع فى الاعتبار عند التصنيف الوظيفى للمدن التتابع التاريخى او التوزيع الجغرافى والاصول الاستعمارية ، وعلى هذا يمكننا ان نميز بين انواع الوظائف المدنية التالية فى المدن الجديدة التى ظهرت فى أوائل القرن الماضى ، وايضا فى المدن القديمة ، كما ظهرت فى الوقت الحاضر فى بعض المدن وظائف حديثة كالوظيفة الترفيهية والصحية والسياحية ، كما انشا الاستعمار السكنى فى شمال افريقيا عددا من المدن والمراكز المدنية الزراعية .

ـ فالوظيفة الحربية : اصبحت مدنها متاحف الآن وتمثلها كل مدن واحات شمال افريقيا المحصنة ضد الغزوات بعامة . ومن امثلتها ، مدن « القصور » فى المغرب العربى ، « والقلعة » فى صحراء الجزائر ، والقلاع الفرنسية فى المملكة المغربية (جميع المدن التى تسبقها كلمة « فورت .. »). ويرجع عدد كبير من مدن الجزائر فى اصوله الى مدن الحصون العسكرية والتى تنتمى فى نفس الوقت الى الوظيفة الادارية (مثل : باطنه ـ ستيف ـ سيدى بلعباس) . اما الموانى الحربية فهى قليلة جدا ، مثلما كانت « وهران » فى الجزائر ، و « هويلس » (عقبة بن نافع) فى ليبيا ، و « القنيطرة » فى المملكة المغربية : وايضا « بنزرت » فى تونس ، حيث كانت المثال الوحيد فى العالم العربى لميناء حربية كاملة فى ذاتها كمدينة وليست مجرد جزء من مدينة .

ـ اما المدن التجارية : فالجديد منها معظمه موان بحرية لا مدن داخلية . حيث كان للاستعمار اثر كبير فى توجيه التجارة فى شمال افريقيا الى الموانى البحرية وتدعيمه لها ، ومن الامثلة البارزة : الجزائر ـ تونس ـ طرابلس ، ولكن اهمها « الدار البيضاء » التى تعد اكبر ميناء بحرية انشاها الاستعمار ليس فى شمال افريقيا فحسب بل فى اى مكان فى العالم العربى ، ولذا قفزت الى قمة الاحجام فى شمال افريقيا . والعدد الكبير من المدن التجارية هى « مراكز الاسواق » (Market centres) التى اسست فى بادىء الامر وبالدرجة الاولى فى مناطق استقرار الاستعمار الاوربى . وقد برزت بكثرة فى المملكة المغربية مثل : سوق الاربعاء ـ قصبة ـ تادلا ـ خميسيت ، وفى الجزائر مثل : سوق اهراس ـ بوفاريك ـ السيج ـ سعيدة ، كما اختيرت مواقعها بعيدا عن المدن الكبرى وسط اقاليم زراعية

وجغرافية متباعدة حيث يمثل كثير منها فى الوقت الحاضر مراكز اجتماعية واقتصادية للريف المحيط بها . وتوجد مواقع المراكز التجارية ايضا عند تقاطع الطرق كنمط من انماط الاستقرار والتجمعات الحضرية فى الصحراء .

ـ مدن النقل : لعل مدن هوامش الصحراء من اقدم مدن النقل فى العالم العربى، وهى مدن القوافل المشهورة التى سميت «بموانى الصحراء» لقيامها على الهوامش بين منطقتين متباينتين من حيث الموارد الطبيعية والامكانات الاقتصادية (الصحراء والحشائش) . وتعد مدن « مرزوق »، « غدامس » من الامثلة الواضحة (١) .

ـ مدن التعدين ومدن الصناعة : مدن التعدين الجديدة قليلة اذا استبعدها منها مدن البترول بانماطها من مدن الحقول ومدن المحطات وموانى البترول . فالمعادن الاخرى لم تخلق مدنا جديدة وكبيرة ، لكن مدن المعادن الاقدم اقلية ومعدودة وكلها تنتمى الى نوع المعدن . فهناك مدن الحديد اهمها « الونزه » شرقى الجزائر ، ومدن الفوسفات مثل : « الرديف » و « الكاف » فى تونس ، « تبسه » فى الجزائر ، و «كشكاط» و «اليروج» فى المملكة المغربية لكن «خوريجة» هى بلا شك عاصمة الفوسفات فى العالم العربى. اما مدن الفحم فهناك «القنادسة» فى الجزائر ، «خنيفره» فى المملكة المغربية . والملاحظ ان مناجم الحديد وحقول الفوسفات الاطلسية تمتاز بتمزقها وتبعثرها فى وحدات عديدة ولكنها ضئيلة مالم يسمح بقيام مدن ولا موان جديدة خاصة بأى منها (٢) . اما الصناعة ، فلم تخلق مدنا جديدة الا فى القليل النادر لاسباب تاخر الصناعة وحداثتها فى شمال افريقيا ، وانها تجمعت فى المدن الكبيرة القائمة وحولها .

ـ الوظيفة الصحية والترفيهية والسياحية : تتركز الوظيفة الصحية فى مدن العيون المعدنية ومدن المصحات مثل « حمام الانف » فى تونس ، كما انها من مدن المشاتى ايضا ـ ، « مدينة الحمام » فى الجزائر بين بجاية وستيف ، وبالمثل عشرات المواضع التى تقرن بكلمة حمام وتدل على نقط

---

(١) انظر : خريطة « لا بلاش » (La Blach) الشهيرة عن موانى الصحراء فى العالم العربى ... فى : جمال حمدان ، (١٩٧٢) ، ص ٣٠٨ .
ـ حسان عوض ، (١٩٦٨) ، حر ص ٦٦ ـ ٦٨ .

(٢) Fitzgerald, W., (1955).

العيون المعدنية فى ثنايا أو هوامش الالتواء الاطلنطى . اما المصايف فهى منتشرة منها « البليدة » قرب الجزائر و « ميشلى » فى غربها ، وكثير من المدن الساحلية فى شرق تونس ، كما تتركز مدن الشواطىء بالقرب من الموانى الكبرى والعواصم الساحلية ، فحول تونس توجد «ا لمرسى » و « سيدى بو سعيد » و « الفضالة » (المحمدية الآن) بالقرب من « الدار البيضاء » .

اما الوظيفة السياحية فمن بين الوظائف الرئيسية التى ظهرت فى المدن اخيرا وكانت ايضا سببا فى نشأة بعضها ، وسجلت تقدما كبيرا فى السنوات الاخيرة علاوة على انها تشكل قطاعا اقتصاديا حديثا من مصادر الثروة فى اقطار المغرب العربى . ومنها السياحية الجغرافية حيث الغابات والبحيرات وخاصة فى المملكة المغربية حيث تعد مدينة « مراكش » المركز ومنها الى «صفرو» ــ يفران ــ ازرو ــ ايتزر وغيرها . ومنها السياحة التاريخية حيث اصبحت المدن الواحية مهيأة لان تصبح مراكز سياحية لا سيما وانها تمتاز بوجود بعض المرافق الحضرية الضرورية، وقد اهتمت بعض الحكومات بهذا الشأن وخاصة المملكة المغربية فى الصحراء ، كذلك ترصد الجزائر وتونس وليبيا مبالغ كبيرة فى ميزانياتها لبناء الفنادق والمنشآت السياحية المختلفة (١) ، ومن بينها (« تفورت » فى جنوب الصحراء الجزائرية ، ومنها الى حد ما « بسكره » . وهناك ايضا المدن الرومانية القديمة المنتشرة فى كل أقطار شمال افريقيا .

وتجدر الاشارة هنا الى أن الاستعمار السكنى كان له دور خطير فى شمال افريقيا فى انشاء عدد من المدن الاستعمارية وبخاصة فى الجزائر ، حيث انشأت عددا كبيرا من القرى لتكون جاهزة لاستقبال المعمرين (٢) ، وكثير منها نجح واصبح مدنا وبالمثل فعل الاستعمار الايطالى في ليبيا . ومع ذلك فقد ظلت الاغلبية العددية دائما للوطنيين ثم جاء الاستقلال وصحبه هجرة الأجانب النازحة الى خارج البلاد، فصفى المدن الاستعمارية وبدأ يحولها الى مدن وطنية . تلك قصة « الدار البيضاء » و «بوفاريك» و «انفيدا» (النفيضة) و « خوريبجة » . كما انشأ المدن الزراعية التى خططت على اساس مراكز مدنية بنمط هندسى وعمارة اجنبية لحقل

---

(١) حسان عوض ، (١٩٦٨) ، ص ص ٨٨ – ٨٩ .

(٢) وضعت فرنسا فى الجزائر مشروع التعمير الرسمى الذى تضمن انشاء وبناء ٣٠٠ قرية جديدة لتكون جاهزة لاستقبال المعمرين ، ثم أصبحت مدنا وأعطيت لها أسماء فرنسية) عن :
Fitzgerald, op. cit.

زراعى ومن امثلتها : « بوفاريك » فى سهل المتيدجه قلب التل الجزائرى، و « انفيدا » على راس اقليم « الساحل » التونسى على خليج الحمامات ، وقد اقيمت فى اجود واخصب رقع زراعية لتكون مدن العنب والنبيذ .

... (٣) توزيع المدن وتباعدها : يتضح من دراسة توزيع المدن وتباعدها عن خريطة شمال افريقيا (شكلى ٤ ، ٦) عدة ظاهرات هى ، التركيز الاقليمى للمدن ـ هيكل شبكة المدن ومحاور توزيعها ـ نمط التوزيع واسبابه .

ـ فمن الواضح ان هناك تركيزا اقليميا للمدن فى بعض الاقاليم داخل اطار اقطار شمال افريقيا الاربعة . فالحقيقة ان سبب تركز السكان فى عدد من المدن هو سرعة وارتفاع معدل الهجرة الوافدة اليها من الريف المحيط بها .

وتقوم المملكة المغربية المثال البارز بين اقطار شمال افريقيا على هذه الظاهرة . فهناك نطاق مستطيل لا يزيد طوله عن ١٦٠ كم يمتد من «الدار البيضاء» جنوبا الى « القنيطرة » شمالا ، وعرضه ٤٠ كم ، يضم ما يقرب من ربع سكان المملكة ونسبة كبيرة من سكان مدنها . وقد كان سكان هذه المساحة الصغيرة منذ نصف قرن مضى ضئيلا اذا قورن بالاقاليم المنخفضة الداخلية ، لكنه يتجه فى الوقت الحاضر الى نمو سريع للمزايا الجغرافية التى تتمثل فى مركزية الموقع وظهيره الغنى وسهولة الوصول اليه برا وبحرا ، وايضا اهميته السياسية والتجارية ، كما تبين من دراسة مدن المملكة المغربية حسب احجامها ومعدل نموها ان هذه المساحة هى النطاق التركيزى للمدن بها (١) . مع الاخذ فى الاعتبار ان السواد الاعظم من سكان المدينة فى المملكة يعمل فى الصناعة او التجارة او الادارة ، وان نسبة سكان المدن المغربية الى مجموع السكان العام ترتفع فى معدلها عن المعدل السائد فى القارة الافريقية وتقترب من المعدل العالمى (٢) .

---

(١) أنظر : حسان عوض ، (١٩٦٤) ، خريطتى رقم ٢ ، ٣ فى آخر الكتاب ، عن : (المملكة المغربية حسب أحجامها المختلفة ومعدل نموها التى يزيد عدد سكانها على ٢٥ الف نسمة) .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٧ ـ ٢٩ .

بالنسبة الى مجموع السكان	فى المملكة المغربية	فى افريقية	فى العالم
ـ مدن + ١٠٠ الف نسمة	٪ ١٨ر٩	٪ ٥	٪ ١٦
ـ مدن + ٢٥ الف نسمة	٪ ٢٣ر٨	٪ ١١	٪ ٢٣ر٥

هناك تركز مشابه في تونس ، فتعد مدينة تونس العاصمة والمدينة الاولى ، لكنها تمثل فى نفس الوقت نواة لاقليم مدنى يشكل دائرة نصف قطرها ٨٠ كم يشتمل على ما يقرب من نصف عدد المدن التى يزيد عدد سكانها على ٢٥ الف نسمة فى تونس (١) . ويلاحظ ان هذا الاتجاه التركيزى اقل وضوحا فى الجزائر ، لكنه آخذ فى التزايد . فلو رسمنا دائرة مركزها مدينة الجزائر (الاولى والعاصمة) بنصف قطر ١٠٠ كم لاحتوت على اثنى عشر مركزا مدنيا نمت فيما بين سنتى ١٩٥٤ ، ١٩٦٦ بمعدلات مرتفعة جدا ، وايضا على نصف سكان المدن الجزائرية تقريبا فى الوقت الحاضر (٢) . لكن على النقيض توجد بعض المدن فى غربى الجزائر لا تنمو باكثر من معدل الزيادة الطبيعية . لكن التوزيع العام للمدن الجزائرية اقرب الى التوازن منه الى التركيز ، فالثقل المدنى يتحدد فى ثلاث بؤرات مدنية ، هى ثلاث دوائر تجمع كل منها عددا من المدن : الوسطى وتضم الجزائر والبليدة والمدية ، والغربية وتشمل وهران وسيدى بلعباس وتلمسان ، اما الشرقية فبها قسطنطينة وعنابة وسكيكدة .

اما عن المعمور فى ليبيا فنجد ان مركز الثقل البشرى والمدنى والانتاجى وبالتالى السياسى يقع كلية على اقصى هامش الرقعة السياسية على طول الشريط الساحلى بعمق لا يزيد على ١٠٠ كم ليضم اكثر من ثلاثة ارباع السكان ومعظم المدن الليبية بما فيها العاصمة والمدن الكبرى (٣) .

ـ اما هيكل شبكة المدن ومحاور توزيعها : فتمثل مساحة المعمور فى

---

(١) راجع Les Villes en Tunisie, op. cit.

(٢) Sutton, K., Algeria, in : Fisher & clarke, (Eds), (1972). PP. 373 — 403.

(٣) جمال حمدان ، (١٩٧٣) ، ص ص ١١٩ — ١٢٠

شمال افريقية نسبة صغيرة من الرقعة السياسية التى يسودها الجفاف والصحراء ، ولذا تركزت المدن فى مساحة طولية ضيقة ، كما جنح هيكل شبكة المدن ـ فى محاوره الرئيسية وليست الثانوية ـ الى الشمال من رقعة الدول ليوازى خط ساحل الاطلنطى والبحر المتوسط ومطوقا الصحراء الكبرى من الشمال . فالمدن فى المناطق المدارية وشبة المدارية وخاصة الاحجام الكبيرة والعواصم تجنح الى الشمال او تلجأ الى الواجهة البحرية ، وهذه ظاهرة واضحة هنا . وتلعب مظاهر الجغرافيا الطبيعية من تضاريس (الالتواءات الاطلسية) وعناصر المناخ (خاصة الامطار) والمورد المائى (ينابيع وآبار) والحد الشمالى للصحراء وخط الساحل ، دورا كبيرا فى رسم هيكل شبكةالمدن وتوزيعها واحجامها فى شمال افريقيا. فثمة اطار من المدن يتمثل فى موانى البحر وموانى الصحراء ، يطوق المنطقة على طول ساحل البحر وحافة الصحراء ، ولكن سمك هذا الاطار يتفاوت من قطاع الى آخر بحسب اتساع السهل الساحلى وطبيعة المطر وكميته وعمق مساحة الدولة فى الصحراء الكبرى الذى يتجاوز احيانا عشرة امثال سمك الشريط الساحلى كما هو فى ليبيا والجزائر .

لذا ، تتعدد خطوط توزيع المدن فى دول المغرب العربى ، فتتباعد اكثر ما تتباعد فى المغرب الاقصى وتتقارب حتى لتكاد تتعدم معا وتلتحم فى نقطة واحدة فى اقصى الشرق فى تونس ، وهنا تتقارب موانى الساحل بموانى الصحراء التى نمت بينها علاقات تاريخية فى النقل والمواصلات ، حتى اذا دخلت ليبيا شرقا تحولت الى خط واحد ساحلى رئيسى تقريبا شديد التكاثف والثقل المدنى . ولذا نجد ان خطوط المحاور الرئيسية لتوزيع المدن تمثل فى مجموعها هيكل شبكة تستر خطوطها كالتالى :

(ا) خط الساحل : وهو يمر بجميع المدن المطلة على الأطلنطى والمتوسط من سيدى افنى الى طنجة ومنها الى البردية على الحدود الليبية الشرقية .

(ب) خط التل : وهو العمود الفقرى فى هيكل شبكة المدن فى المغرب العربى عامة ، وهنا نجد تسع مدن من بين اثنتى عشرة مدينة يزيد عدد سكانها على ١٠٠ الف نسمة .

(جـ) خطة الهضبة : وتشكل المدن هنا مواقع اقدام جبال اطلس المواجهة للساحل .

(د) خط اقدام الاطلنطى : وهو يمثل اقدام سلاسل جبال اطلس

وخاصة اطلس الصحراء . وترتبط المدن هنا بخط الماء الباطنى فهنا مدن الواحات والقطائر لمثيلتها الشمالية . (بسكره ـ الاغواط ـ سجلماسة ـ غدامس) . وهناك خط آخر هو خط الينابيع فى قلب الصحراء (غرداية ـ ورجلة ـ تغورت ـ شط الجريد ـ الكفرة ـ جغبوب ـ مرزوق) .

وهناك خطوط اخرى فرعية كثيرة على المستوى العام لشمال افريقيا والمحلى لكل قطر من اقطاره على حده ، لكن هذا هو الهيكل العام لخطوط التوزيع وشبكة المدن الرئيسية فى شمال افريقيا (١) .

ـ نمط التوزيع واسبابه : ان نمط توزيع المدن لجدير بالاعتبار والملاحظة لتركز المدن فى شريط ساحلى لا يتجاوز عرضه ٢٠٠ كم ولا يتعدى الخط الشمالى للصحراء ، كما تقع معظم المدن السريعة الامتداد داخل خط مواز للساحل لا يبعد عنه اكثر من ٨٠ كم لتتوزع كلها الى الشمال من الحد الجنوبى لنباتات البحر المتوسط (شكل ٤) اما المراكز المدنية الكبيرة التى تقع الى الداخل مثل : قسطنطينة ـ فاس ـ مكناس ـ مراكش ، فهى مدن قديمة التاسيس اكتسبت اهميتها من كونها مراكز اقليمية تقع على طرق التجارة الكبرى . لكن قلت اهميتها الوظيفية ـ فى الوقت الحاضر ـ مع تركيز التجارة على الموانى . وبشكل عام ، يتركز توزيع المدن الى الشمال وشمال غرب جبال الاطلس ، حيث يبلغ المعدل السنوى لسقوط الامطار اكثر من ٢٥٠ ملليمتر . وهنا يتضافر عدد من العناصر الطبيعية والبشرية بالاضافة الى عامل التوجيه البحرى جعلت هذا النطاق (الشريط الساحلى) يضم اكثر من ثلاثة ارباع السكان وايضا نسبة كبيرة من المدن بما فيها كل العواصم والمدن الكبرى والموانى .

هناك خارج النطاق الساحلى اشكال وصور مختلفة من العمران فى الصحراء منها « الواحات » (Oasis Towns) ومراكز التعدين (Mining centres) ومدن الاسواق الصغيرة (Market Towns) التى ترتبط بالبداوة ، واهمها مدن الواحات حيث قامت حياة حضرية قديمة جدا قدم الواحات نفسها (٢) . ويتبين من توزيعها الجغرافى ان اكبرها حجما يقع فى واحات القسم الشمالى الغربى من الصحراء الذى ينتمى سياسيا الى الاقطار الثلاثة تونس والجزائر والمملكة المغربية وعددها سبعة اكبرها « بسكرة » فى الصحراء الجزائرية الشمالية (يزيد عدد سكانها على ١٠ الف نسمة) ، وهى : بسكرة ـ الاغواط ـ غرداية ـ الواد ـ توغورت ـ توزر ـ ورجلة ، ثم هناك عدد آخر يزيد سكانها على ٥ آلاف نسمة . اما فى النصف الشرقى من الصحراء وهو الجزء الذى

---

(١) للمزيد : انظر : جمال حمدان (١٩٦٤) ، ص ص ١٠٤ ـ ١٣٧ ، وخريطتى شكل (٧) ، وشكل (٨) عن خطوط مدن المغرب العربى وخطوط العمران فى ليبيا .

(٢) حسان عوض ، (١٩٦٨) ، ص ٦٨ .

تحتله الصحراء الليبية فان اكبر الواحات يوجد فى فزان حيث مدينة « مرزوق » (١) .

وقد اثر التباعد الكبير بين هذه المدن فى قلة مساهمة سكانها من مجموع السكان العام وعدم العناية بمشاكل الحياة المعاصرة التى تتطلب الخدمات الاجتماعية (مدارس ـ مستشفيات ـ دور السينما وغيرها) اكثر من الخدمات الاقتصادية (متاجر ـ اسواق ـ وغيرها) ، فهذه هى الطبيعة الجوهرية للنشاط الاقتصادى فى الاقاليم شبه الجافة . لكن جميع السكان من اهل الزراعة فى الأودية والواحات او الرعى فى الداخل والصحراء يرتبطون ارتباطا وثيقا بالمدن على الساحل ، تلك المدن التى تقوم كموانى بحرية ـ الآن ـ وكانت تصب فيها تجارة القوافل فيما مضى .

على أن هذا التباعد قد وصل الى ٨٠ كم بين المراكز المدنية التى يزيد عدد سكانها على ١٠٠ الف نسمة فى النطاق المزدحم بالسكان ، لكن يقل التباعد بينها فى الجزائر اذ يتراوح بين ٣٠ ـ ٤٠ كم ، وبخاصة فى المناطق التى كانت آهلة بكثافة استقرارية للاوربيين ، بينما على النقيض لا توجد مدن من نفس الحجم فى السهول الكثيفة السكان فى المملكة المغربية . ومع ذلك فهذا المعيار مضلل فى تقدير الاقتراب من او الوصول الى الخدمات المدنية فى شمال افريقيا لسببين وهما : ان هذا الحجم من المدن (+ ١٠٠ الف نسمة) لا يقوم بأداء الخدمات على الوجه الاكمل فى حين ان هذه المدن تزدهر كمراكز للاسواق . والحقيقة ان هناك فرض سيطرة من المدن على الريف خاصة من ناحية الاسواق التجارية ، لكن مع تحسن الظروف الاجتماعية والاقتصادية للسكان فى نطاق الشرق الاوسط بعامة ، اتسع نطاق السوق المحلية وزاد التبادل التجارى بين الريف والمدن ونظمت العلاقات بينهما فى الدولة الواحدة (٢) . كما انه من الشائع وقوع اسواق المغرب العربى فى كل مكان فى القرى والمدن الصغرى القريبة جدا من بعضها . ولذا يمكن تطويرها بوضع تنسيق وترتيب بينها لتحديد ايام للاسواق المتداخلة والمتعاقبة .

وهكذا نجد كثيرا من مواقع مراكز اسواق الانتاج الزراعى والرعوى فى مناطق الزراعة التقليدية ، بينما اختيرت مثيلاتها فى مناطق الزراعة الحديثة فى مواقع مناسبة من مواطن السكنى . وقد قدم كلا النمطين التسهيلات المحلية الاجتماعية بحيث اصبح اقتراب قاطنى الريف من الجامع والعيادة الطبية والمدرسة الابتدائية على مسافة معقولة ، ومع ذلك ظلت بعض الخدمات تبعد مسافة اكثر من ١٥٠ كم ، كما ان انشاء مزيد من المدن المتوسطة الحجم الجديدة يبدو امرا عسيرا . ومن ثم لابد أن ندخل فى حسابنا حقيقة هامة وهى انه عند اختيار مثل هذه المدن الصغيرة فى شمال افريقيا كنقط للنمو المدنى ، انها لا توضع فى مستوى المقارنة مع مدن العالم الغربى التى من نفس الحجم .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Iliya F. Harik, (1973), PP. 12 — 31.

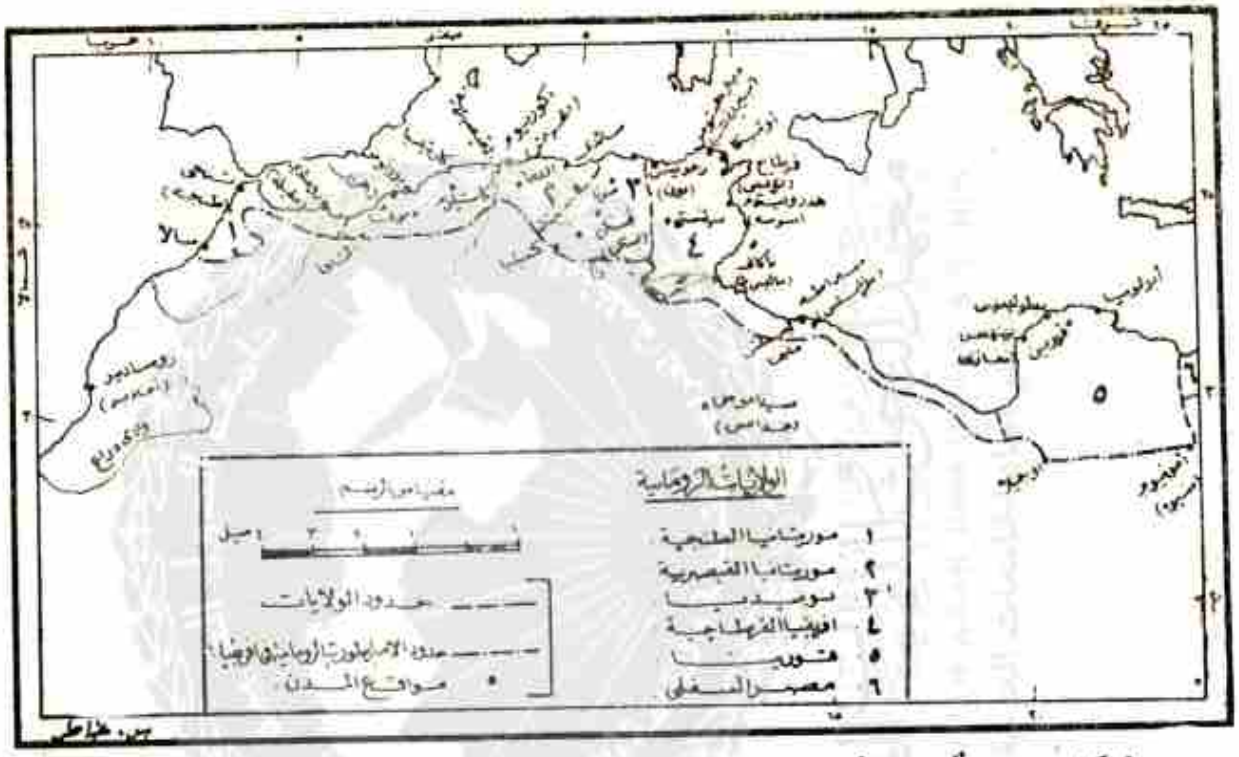

شكل (١) "مدن شمال إفريقيا في العصر الروماني" (القرن الثاني الميلادي)

[After, Fage (1958), P. 6. مع تعديلات]

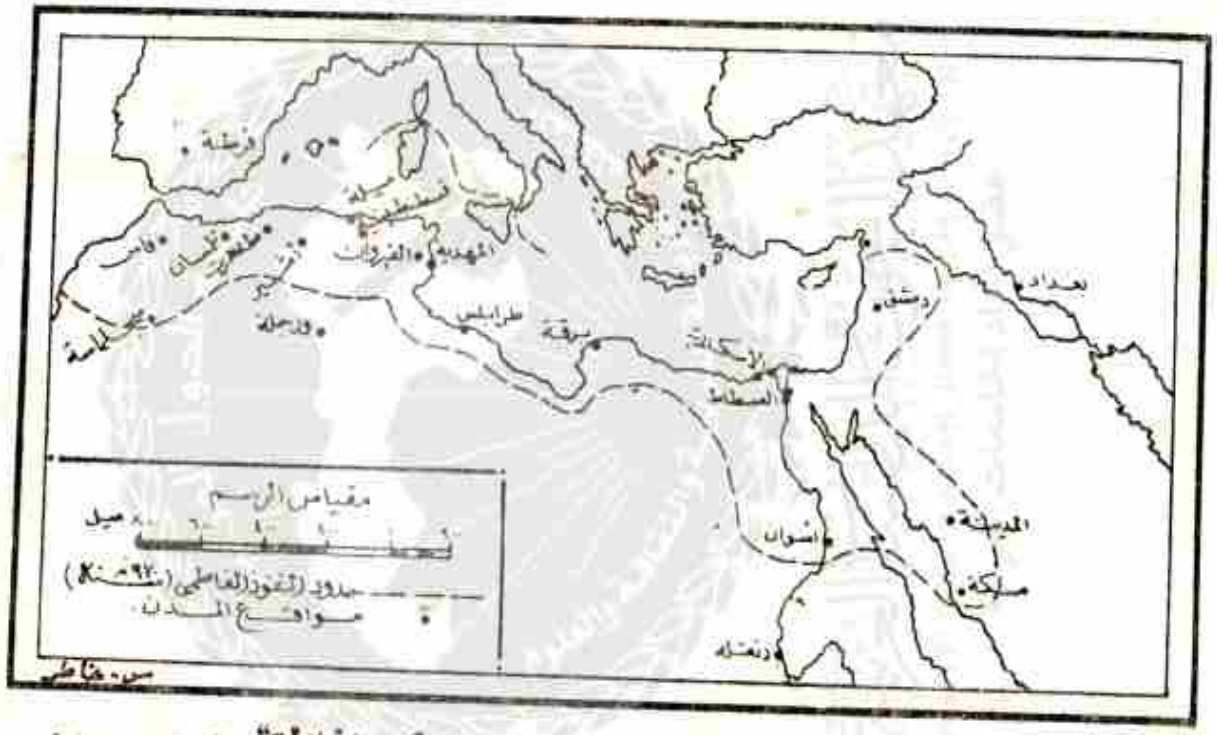

شكل (٢) "مدن شمال إفريقيا في العصر الفاطمي" (القرن العاشر الميلادي).

[After, Fage (1958), P. 11 ـ مع تعديلات]

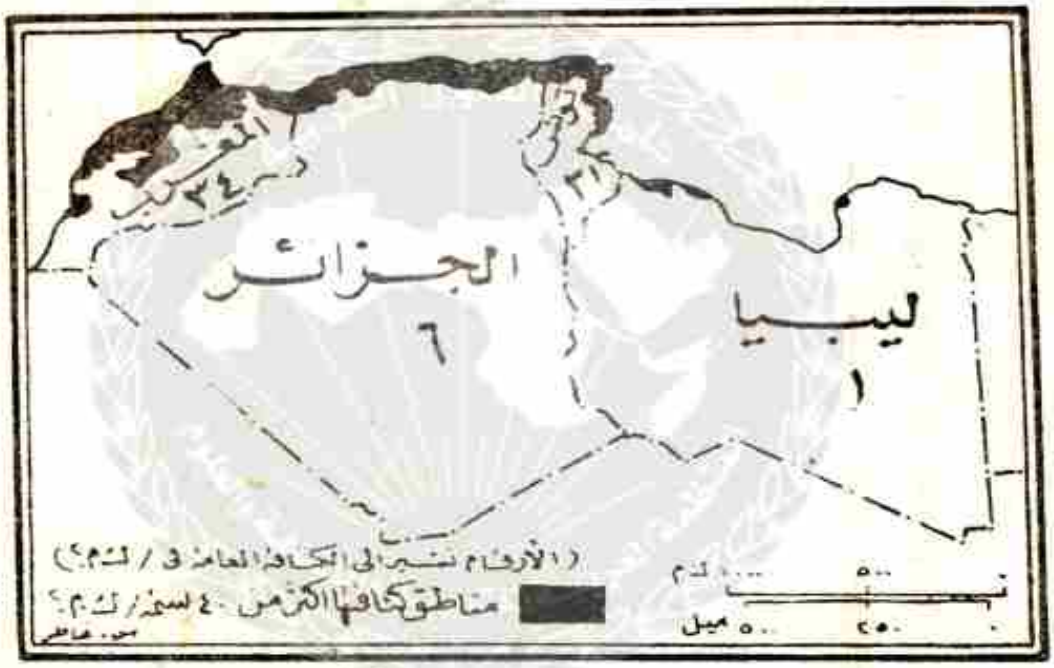

شكل (٣) "الكثافة السكانية فى شمال افريقيا"

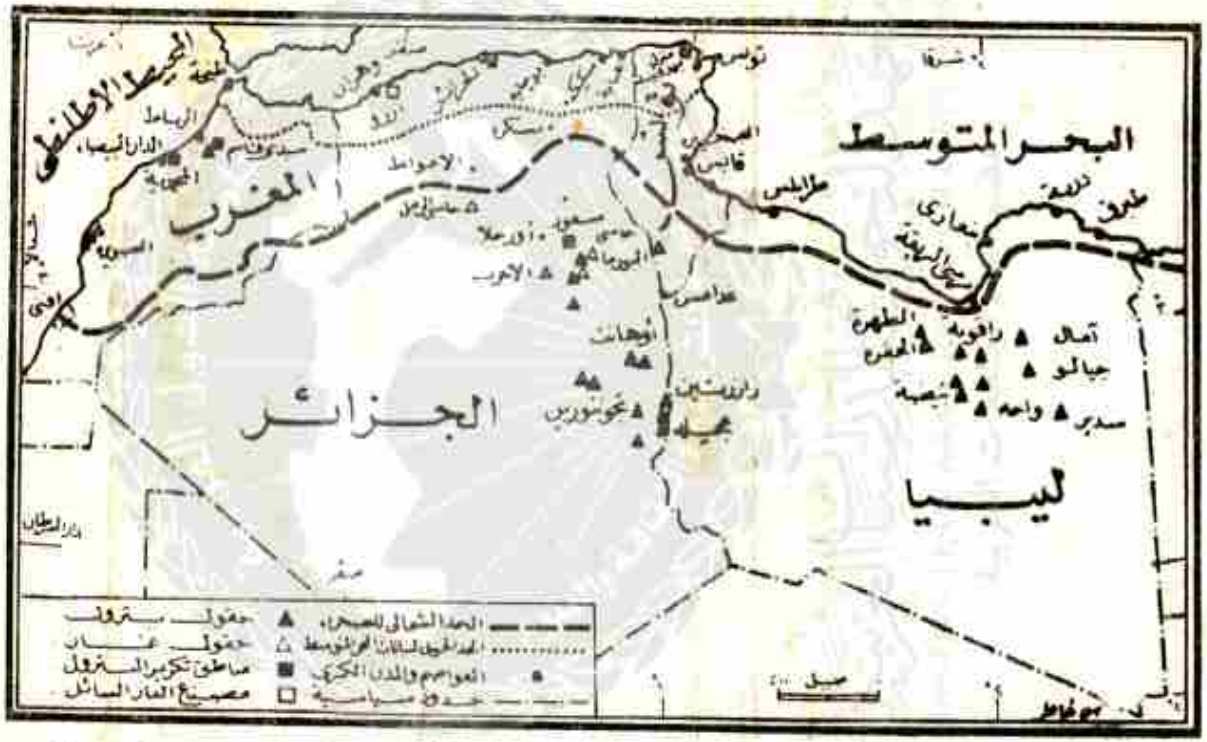

شكل (٤) "العواصم والمدن الهامة والحد الشمالى للصحراء فى شمال افريقيا"

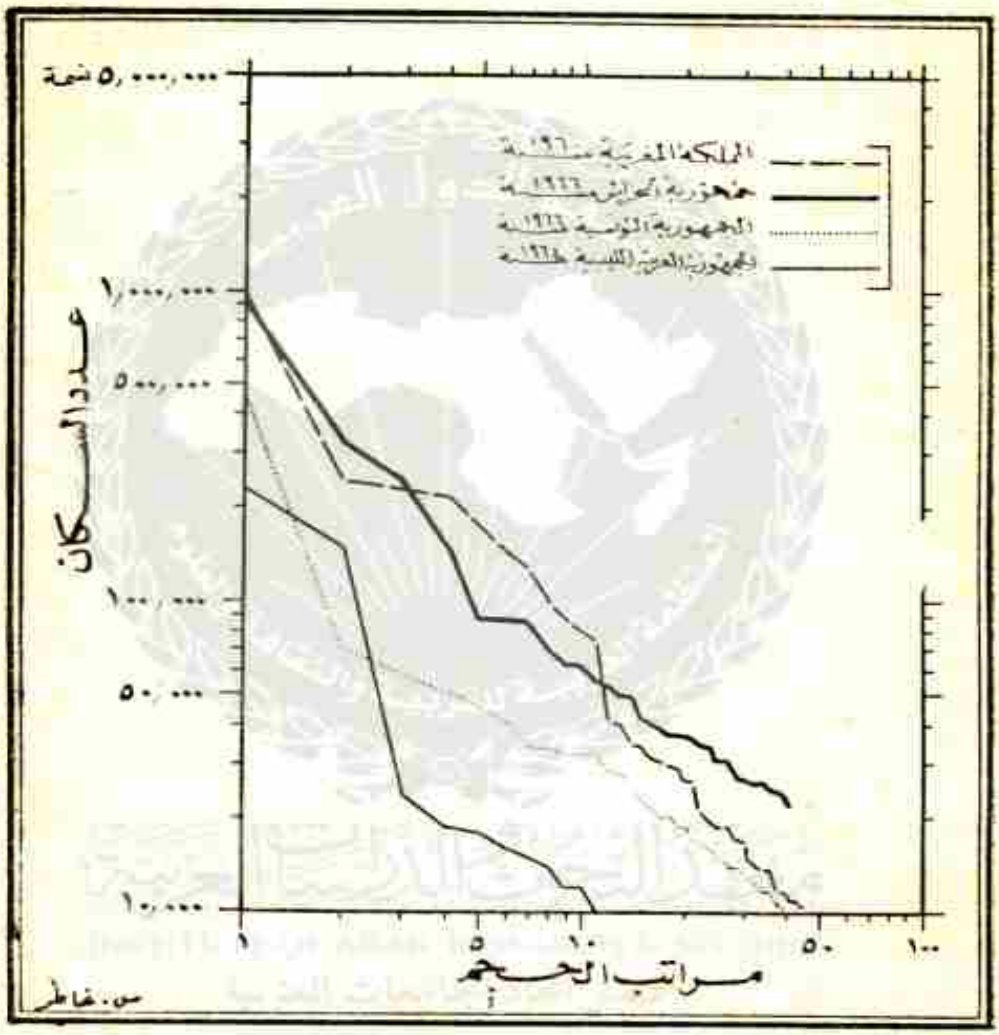

شكل (٥) "التدرج الهرمي لسكان مدن شمال إفريقيا"

[مع تعديلات Ofer, Clarke, (1972) p. 33]

جدول (١) "المساحة والسكان ودرجة المدنية في شمال افريقيا"

(١) القطر	(٢) المساحة (الف كم٢)	(٣) عدد السكان (الف نسمة) تقدير ١٩٧١	(٤) الكثافة العامة (كم٢ ـ ١٩٧١)	(٥) معدل الزيادة السنوي (٦٣ ـ ١٩٧١) %	(٦) معدل الزيادة الطبيعي (٦٣ ـ ١٩٧١) %	(٧) درجة المدنية (٪ من مجموع السكان)	(٨) النسبة المئوية لعدد السكان من القارة الافريقية (تقديرات ١٩٧١)
المغرب	٤٥٥	١٥,٢٣٤	٣٤	٢,٩	٣,٣	٣٥,٢	٤,٣
الجزائر	٢,٣٨٢	١٤,٧٦٩	٦	٣,٥	٣,٢	٣٩,–	٤,–
تونس	١٦٤	٥,١٢٧	٣١	٢,٢	٣,–	٤٠,١	١,٤
ليبيا	١,٧٦٠	٢,٠١٠	١	٣,٧	٣,–	٢٤,٦	٥,–
شمال افريقيا	٤,٧٥١	٣٧,١٥٠	١٨	٣,–	٣,١	٣٤,٧	١٠,٢

المصدر: الجدول من المصادر التالية ـ

1. U.N., Demographic year book (1971), N.Y., 1972, Table 1, PP. 111-158.
2. . . . , Statistical yearbook 1972, N.Y. 1973, Table 19, PP. 57, 79 & Table 21, PP. 89-90.
3. Ominde, S.H. and Ejiogu, C.N., (1972), PP. 95-110.

جدول (٢) "عدد المدن واحجامها الاكثر من ١٠٠٠٠ نسمة في شمال افريقيا" (طبقا للتعدادات الرسمية)

القطر	سنة التعداد	جملة السكان (بالالف)	مليون فاكثر		من ١٠٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩٩		من ٥٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩		من ٢٠٠٠٠ الى ٤٩٩٩٩		من ١٠٠٠٠ الى ١٩٩٩٩		الجملة	
			% سكان	عدد	% سكان	عدد	% سكان	عدد	% سكان	عدد	% سكان	عدد	% سكان	عدد
المغرب	١٩٦٠	١١,٦٤٦	—	—	١٨,٩	٨	٤,١	٥	٣,٤	١٢	٤,٧	٢٤	٢٦,٩	٤٧
الجزائر	١٩٦٦	١١,٨٣٣	—	—	١٤,٣	٤	٨,٧-	١٣	١٤,٦	٥٣	٣,٠-	٢٤	٢٩,٩	٩٣
تونس	١٩٦٦	٤,٤٥٧	—	—	١٠,٣	١	٤٠,-	٣	٩,٤	١٢	٦,٧	٢٤	٣٠,٤	٤٠
ليبيا	١٩٦٤	١,٥٦٤	—	—	٢٥,٥	٢	—	—	١,٦	١	٧,٧	٨	٣٤,٩	١١
شمال افريقيا		٢٩,٤٨٠	—	—	١٧,٣	١٥	٣,٥	٢١	٧,٢	٧٩	٥,-	٧٦	٣٣,-	١٩١

المصدر: الجدول من اعداد الباحث.

1) Clarke, J.I., Urban Population growth in the Middle East and North Africa, Paper Submitted to Institute of British Geographers (I.B.G.) population study Group Symposium, Keele, Sept. 1969, table II & III

2) Clarke, J.I. and Fisher, W.B. (1972), P. 29 & P. 31

جدول (٣) "النسبة المئوية لسكان المدن ولمعدل نموهم - في شمال افريقيا.

القطر	سكان المدن (*)			معدل نموهم السنوي		
	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	٥٠ - ١٩٦٠	٦٠ - ١٩٧٠	٥٠ - ١٩٧٠
المغرب	٢٣,١	٢٩,١	٣٥,٣	٥,-	٤,٩	٥,-
الجزائر	٢٤,٥	٣١,٢	٣٨,٢	٤,٤	٤,٥	٤,٤
تونس	٣٠,٦	٣٧,-	٤٣,٤	٣,٥	٣,٢	٣,٣
ليبيا	٢١,٢	٢٤,٦	٢٨,٢	٤,٦	٤,٦	٤,٦
شمال افريقيا	٢٤,٨	٣٠,٥	٣٦,٣	٤,٣	٤,٣	٤,٣

المصدر : الجدول من المصادر التالية :

1). Kingsley Davis, World Urbanization, 1950-1970, Vol I. Basic data for Cities, countries and Regions. Population Monograph Series No 4, Univ. of California, Berkeley, 1969, Table A & D.

(*) طبقا لتعريف وتحديد المدن في كل دولة

جدول (٤) المدن في شمال افريقيا (حتى عام ١٩٧٠م)

١) - عدد المدن لأكثر من ١٠٠٠٠ نسمة :

الدولة	أجسام المدن			
	مليون فأكثر	من ١٠٠٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩٩	من ٥٠٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩٩	من ٤٠٠٠٠٠ الى ٤٩٩٩٩٩	من ١٠٠٠٠ الى ١٩٩٩٩
المغرب	١	٩	٥	١٢	٢٢
الجزائر	—	٤	١٣	٥٢	٢٤
تونس	—	١	٣	١٤	٢٢
ليبيا	—	٢	—	١	٨
شمال افريقيا	١	١٦	٢١	٧٩	٧٦

ب) - عدد المدن لأكثر من ٢٥٠٠٠ نسمة : [جدول (٦)]

الدولة	أجسام المدن				
	مليون فأكثر	من ٥٠٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩٩	من ١٠٠٠٠٠٠ الى ٤٩٩٩٩٩	من ٥٠٠٠٠٠ الى ٩٩٩٩٩٩	من ٢٥٠٠٠٠ الى ٤٩٩٩٩٩
المغرب	١	١	٨	٣	١٠
الجزائر	—	١	٣	٩	٢٨
تونس	—	١	—	٣	٩
ليبيا	—	—	٢	—	٥
شمال افريقيا	١	٣	١٣	١٥	٥٢

ملحوظة : (١) أجسام المدن في المغرب طبقا لتعدادات سنة ١٩٦٠م
(٢) طبقا لتعداد أحد الولايات في كل دولة من الدول الثلاث الأخرى سنة ١٩٦٠
الأماكن في نفس ترتيبها الأصلي
(٣) مدينة الجزائر مقسومة بقسمين

المصدر : الجدول من المصادر التالية

1) - U.N. Demographic yearbook 1971, N.Y. 1972, Table 9 PP 353-381

(٢) حسان عوض : جغرافية المدن العربية ، يناير ١٩٦٦ ، ص ص ٤٦-٥٢

3) Fisher, W.B & Clarke, J.I., (1972) P 366

جدول (٥) « المدينة الأولى في شمال افريقيا »

الدولة	المدينة الأولى (١٠٠)	المدينة الثانية نسبتها إلى الأولى	المدينة الثالثة نسبتها الى الأولى	نسبة العاصمة من السكان
المملكة المغربية	الدار البيضاء	مراكش ٣١,٤ ٪	فاس وطنجة ٢٥,٧ ٪	١,٧ ٪
الجزائر	الجزائر	وهران ٤٨,٢ ٪	قسطنطينه ٢٧,٤ ٪	٧,٧ ٪
تونس	تونس	صفاقس ٩,٥ ٪	سوسة ١٧,— ٪	١٧,— ٪
ليبيا	طرابلس	بنغازي ٤٣,٤ ٪	درنه ١١,٦ ٪	١٦,٧ ٪

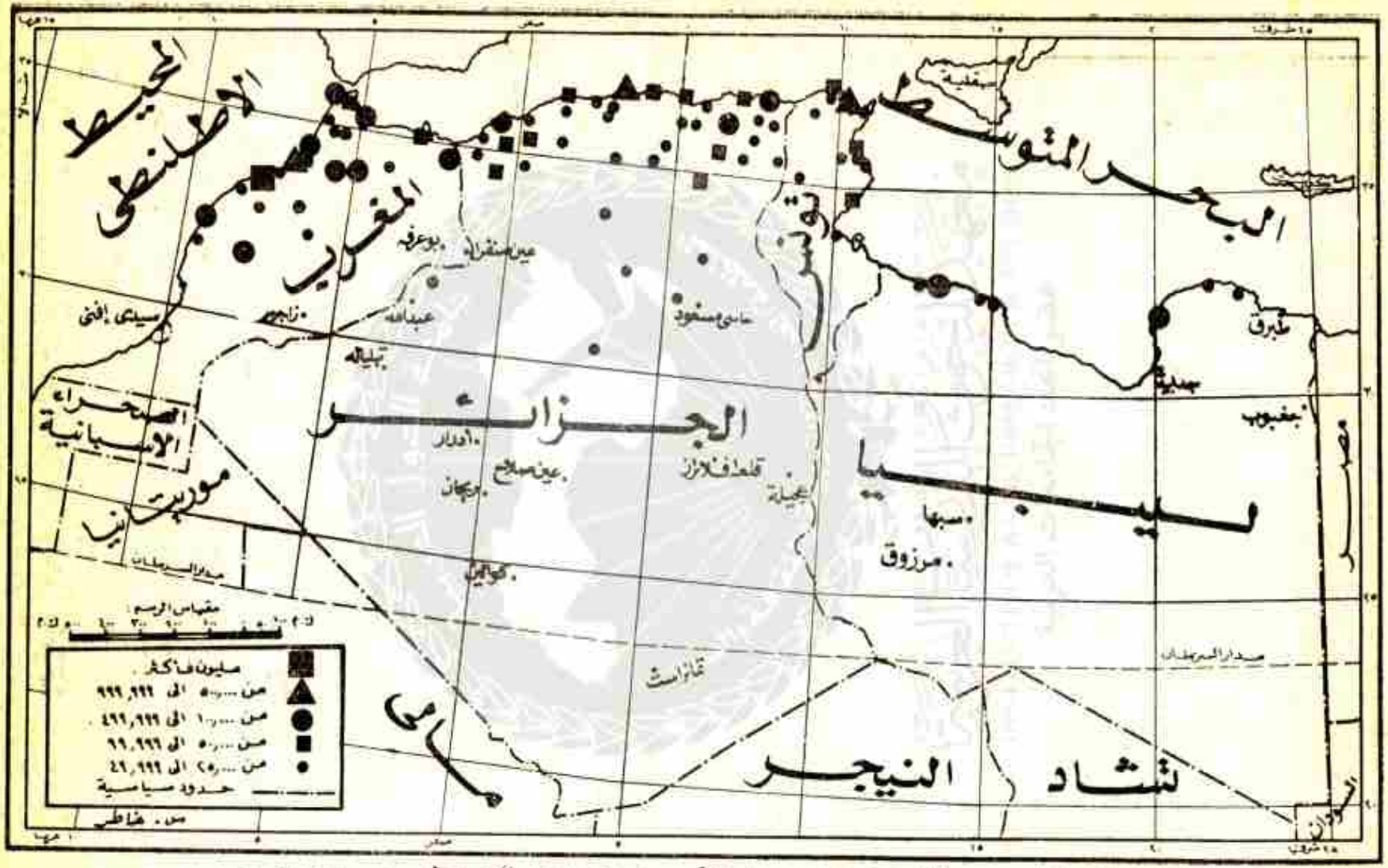

شكل (٦) "توزيع المدن في شمال افريقيا" (الاكثر من ٢٥ ألف نسمة)

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ – ابراهيم رزقانه ، المغرب العربي ، القاهرة ١٩٦٣ . (معهد الدراسات الاسلامية) .

٢ – بلدية تونس ، العمران ، (المطبعة الرسمية) ، تونس ، بدون تاريخ .

٣ – جمال حمدان ، جغرافية المدن ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، (الطبعة الثانية) .

٤ – ..... ، الجمهورية العربية الليبية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٥ – ..... ، المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ . (معهد الدراسات العربية العالية) .

٦ – حسان عوض ، جغرافية المدن المغربية ، على ضوء تطورها الديموغرافي الحالي ، الرباط ، يناير ١٩٦٤ . (مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي) .

٧ – ..... ، « مدن الواحات في الصحراء الكبرى ، دراسة لنمط من أنماط النمو الحضري في المناطق الجافة ، « مجلة كلية الآداب – الجامعة الليبية ، المجلد الثاني ، ١٩٦٨ ، ص ص ٦٥ – ٩٧

٨ – خيرية قاسمية ، على ابراهيم عبده ، يهود البلاد العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

٩ – عزة النص ، أحوال السكان في العالم العربي ، القاهرة ١٩٥٥ .

١٠ – محمد محمود الصياد ، عبد المنعم الشرقاوي ، ملامح المغرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

١١ – نوفل كسراوي ، « مقومات ومشاكل النمو العمراني في العالم العربي وتأثيرها على التخطيط الشامل » ، (منظمة المدن العربية – أعمال المؤتمر الثالث – تونس ، سبتمبر ١٩٧١) ، ص ١٣٩ – ١٥٤ .

وأيضاً : أعمال المنظمة – المؤتمر الأول – بيروت ، أغسطس ١٩٦٨
– المؤتمر الثاني – البحرين ، فبراير ١٩٧٠ .

ثانيا : المراجع الافرنجية :

1 — Awad, H., Morocco's Expanding Towns», (Geographical Journal, 130, March 1964, PP. 49 — 64.

2 — Berry, B.J.L., and Garrison, W.L., «Alternate Explanations of urban Rank Size Relationships», A.A.A.G., Vol. 48, No. 1, 1958, PP. 83 — 91.

3 — Blake, G.H., «Urbanzation in North Africa», Tijdschrift Voor Econ. en Soc. Geographie», Mei / Juni, 1971, P. 190 — 196.

4 — Breese, G., Urbanization in Newly Developing, Countries, N.J., 1966.

5 — ———— , (Ed.), The city in Newly Developing Countries, N.J., 1969.

a) Isis Raghab, «Pattern of urban Growth in the Middle East», PP. 104 — 126.
b) Hamdan, G., «Capitals of the New Africa», PP. 146 — 161.
c) U.N. Economic Commission for Africa, « Size and Growth of Urban Population», PP. 128 — 145.

6 — Central Bureau of Statistics for Israel, «Statistical Abstract of Israel», Jerusalem, Seweral years to 1971.

7 — Chouraqui, A., Between East and West, A History of the Jews of North Africa, Trans. from the french, philadelphia, 1968.

8 — Clarke, J.I., Population Geography and the Developing Countries, London, 1971.
(chapter III, Africa, PP. 90 — 138.

9 — ————————, «Urban Pop. Growth in the Middle East and North Africa», Paper submitted to (I.B.G.), Population study group's symposium on Pop. Growth in Urban Areas, Keele, Sept. 1969.

10 — Davis, K., World urbanisation 1950 — 70, Vol. I., Basic Data for cities, Countries and regions, population Monograph series No. 4, Univ. of california, Berkeley, 1969.

11 — Fage, J.D., An Atlas of African History, London, 1958.

12 — Fisher, W.B. and clarke, J.I., (Eds.), Populations of the Middle East and North Africa, A geographical Approach, London, 1972.
a) Sutton, K., «Algeria changes in Pop. distribution 1954-60», PP. 373 — 403.

13 — Fitzgerald, W., Africa, London, 1955.

14 — Hamdan, G., «The pattern of Medieval Urbanism in the Arab World», **Geography**, April 1962, PP. 121 — 134.

15 — Hance, W.A., population, Migration, and Urbanization in Africa, N.Y., 1970.

16 — Iliya F. Harik, «The impact of the Domestic Market on Rural-Urban Relations,» Journal of Social Sciences, Kuwait Univ., No. 1, Oct. 1973, PP. 12 — 31.

17 — Jarrett, H.R., Africa, London, 1970.
(North West Africa, PP. 109-173 & Lybia, PP. 237 — 251).

18 — Jefferson, M., «The Law of the primate city», **Geog. Review** Vol. 29, April (no. 2) 1939, PP. 226 — 232.

19 — ————— , «Distribution of World's Folk», **Geog. Review,** July 1931.

20— Landshut, S., Jewish Communities in the Muslem countries of the Middle East, London, 1950.

21 — LLoyd Rodwin, Nations and cities, A comparison of strategies for urban Growth, Boston, 1970.

22 — Mc Gee, T.G., The urbanization process in the third world, London, 1971.
(part I : Theoretical Explorations, the Third world, PP. 13 — 96).

23 — Nels Anderson, (Ed.), Urbanism and urbanization, Leiden, 1964.
a) Benet, F., «The Ldeology of Islamic urbanization», PP 111 — 162. (reprinted from : International Journal of comparative Sociology, Vol. IV, No. 2, 1963).

24 — Ominde, S.H. and Ejiogu, C.N., (Eds), population Growth and Economic Development in Africa, London. 1972.

25 — Prothero, R.M., (Ed.), A Geography of Africa, London 1973.
a) Clarke, J.I., «North-West Africa Since Mid-Century», PP. 21 — 77).

26 — Republique Tunisienne, Ministere De L'Economie Nationale, «Les Villes en Tunisie», 1971.

27 — Weber, A.F., The Growth of cities in the 19th century, N.Y., 1965.

28 — U.N., — Demographic yearbook 1971, N.Y., 1972.
— Statistical yearbook 1972, N.Y., 1973.
— Statesman's yearbook 1960.

معهد البحوث والدراسات العربية
مقر الأمانة للجامعات العربية